الباب الثانى

الوجود المصرى فى افريقيا فى الفترة

ما بين

١٨٦٣ م — ١٨٧٩ م

الفصل السابع

الثروة البشرية والغاء الرق

لم تؤد الاجراءات التى اتخذتها مصر بشأن وقف تجارة الرقيق فى افريقيا فى الفترة السابقة على عصر اسماعيل الى الغاء هذه التجارة التى كانت متأصلة فى البلاد وذات جذور عميقة فى الكيان الاجتماعى والاقتصادى لسكان وادى النيل ، فكانت المنازل فى مصر مثلا لا تخلو من العبيد والجوارى الذين كانوا يعملون كخدم ، حتى أصبح طموح السيدات فى مصر هو أن يمتلكن عبدا أو جارية ، وكذلك كان الحال فى السودان الشمالى فكان السكان يستخدمون العبيد فى زراعة القطن ، وربما فى رعى دوابهم (١) .

يبدو أن السبب فى عدم الغاء الرق فى افريقيا فى الفترة السابقة على عصر اسماعيل كان يرجع الى انتشار هذه التجارة على نطاق واسع ، وخاصة بعد فتح النيل الأبيض للملاحة ، والى انعدام الرقابة على منافذ الطرق التى كانت تستخدم بواسطة الجلابة ، وكذلك الى اهمال مديرى المديريات فى العمل الجاد على الغائها ، وربما رجع ذلك ايضا الى أن حكام مصر كانوا غير راغبين فى الغائها .

ولما تولى اسماعيل حكم مصر عام ١٨٦٣ م كانت مشكلة الرق من المشاكل الملحة التى تستدعى حلا جذريا حتى يستتب الأمن ويعم الرخاء كل البلدان الأفريقية فاضطره ذلك الى الاسراع فى العمل على وقف هذه التجارة وخاصة بعد أن قضى عليها فى معظم الدول الأوربية والمستعمرات البريطانية (٢) ولقد تمكن اسماعيل فى فترة حكمه من أن يقوم بتشييد صرح امبراطورية

---

(١) Pierre Crabites : Ismail the Maligned Khedive P. 72.

(٢) انظر الفصل الاول من الباب الأول .

مترامية الأطراف ، شملت كل من دارفور ومنطقة بحر الغزال وأعالى النيل ، وافريقيا الشرقية حتى قسمايو (٣) .

ولكى يقضى اسماعيل على هذه التجارة فى افريقيا اتخذ بعض الاجراءات التى يمكن بها القضاء عليها ، وكان اول هذه الاجراءات انه أصدر تعليماته الى حكمدار السودان،والى مديرى المديريات ، يحثهم فيها على ضرورة العمل على عتق ما يملكه الجلابة من الرقيق الأسود ، بعد ذلك يحصل هؤلاء الرقيق على شهادات عتقهم،ثم يعودون بالتالى الى أوطانهم تحت حماية الحكمدارية. وفى حالة عدم رغبة هؤلاء العبيد فى الرجوع الى بلادهم لخوفهم من وقوعهم مرة ثانية فى أيدى الجلابة تقوم الحكمدارية بتوزيعهم على الأعمال المختلفة ، شـــأنهم فى ذلك شـــأن رعايا الحكومة المصرية ، بالاضافة الى ذلك فان الحكمدارية كان عليها أن تربى أولادهم ، وتزوج بناتهم (٤) .

وكان من الاجراءات التى اتخذها اسماعيل لوقف تجارة الرقيق الأسود انه أمر بمصادرة المراكب التى تعمل فى النس الأبيض والتى تضبط محملة بالرقيق وقد تم بالفعل ضبط سبعين مركبا فى فترة قصيرة وتم تحرير ماضبط فيها من عبيد (٥) وفى نفس الوقت أمر اسماعيل بتشديد الرقابة على سفن الشركة العزيزية المصرية التى تعمل فى البحر الأحمر وحذرها من نقل الرقيق الأسود من سواكن ومصوع وغيرها من موانى البحر الأحمر الى الموانى الأخرى (٦) علاوة على ذلك أرسل حملة عسكرية الى منطقة اعالى النيل(٧) وذلك لمهاجمة مراكز تجارة الرقيق فى المنطقـــة الواقعـــة بين الخـــرطوم وغندوكرو(٨)وعين على رأس هذه الحملة السير صمويل بيكر الذى زوده بسلطة

---

(٣) د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، ص١٧٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص٢٠٠ .

(٥) Dr. Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and slavery in the Sudan. P. 93.

(٦) د. محمد فؤاد شكرى : المصدر السابق ص١٧١ .

(٧) Pierre Crabites : Gordon in the Sudan and slavery. P. 28.

(٨) Dauleday and company Inc : Exploring Africa and Asia. PP. 3,6.

مطلقة ، حتى يكون له الحرية فى اتخاذ القرارات التى تتطلبها الحملة وكان من أهم اهداف هذه الحملة : ـــ

ـــ القضاء على تجارة الرقيق فى منطقة أعالى النيل ، وتدمير مراكزها التجارية فى هذه الجهات ، بالاضافة الى اخضاع هذه المنطقة للسياد المصرية.

ـــ تنظيم حركة التجارة المشروعة فى هذه البلاد .

ـــ فتح طريق الملاحة بين النيل الأبيض والبحيرات العظمى .

ـــ تأسيس سلسلة من المحطات العسكرية والمراكز التجارية التى تمتد من الخرطوم شمالا وحتى بحيرة البرت جنوبا ، بحيث تبلغ المسافة بين المحطة والأخرى مسير ثلاثة أيام .

يبدو أن هذه الحملة نجحت فى تنفيذ بعض المهام الموكلة اليها وفشلت فى تنفيذ البعض الآخر ، فقد نجحت فى نشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد التى تم اكتشافها والتى خضعت للسيادة المصرية وفى هذا الصدد يقول صمويل بيكر ما نصـــه :

« انه أثناء حكم الخديو اسماعيل انتشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلدان الأفريقية التى خضعت لنفوذه ، ابتداء من الاسكندرية وحتى منابع النيل ، فقد أصبح المغامر الأوربى يسير فى هذه البلدان دون التعرض لأى مخاطر ، بل انه أصبح يمشى فى أمن أكثر من المواطن الانجليزى الذى كان يسير بعد الغروب فى الهايدبارك (٩) .

ومن ناحية أخرى فان هذه الحملة فشلت فى القضاء على تجارة الرقيق فى هذه البلاد ، وربما يرجع ذلك الى عدة عوامل منها عدم كفاءتها العسكرية وعدم مقدرتها على احكام الرقابة على الجلابة وتدمير مراكزهم التجارية ومنها المصاعب الطبيعية التى تعرضت لها الحملة من غابات وأحراش وأدغال ومستنقعات،ومنها سوء قيادة صمويل بيكر،ومنها نقص العتاد والذخيرة ـــ بالاضافة الى مقاومة القبائل النيلية لها .

---

(٩) Pierre Crabites : Ismail the Maligned. op. cit. pp. 72-73,77

وكان من أشهر تجار الرقيق العرب فى منطقة أعالى النيل أبو السعود صهر تاجر الرقيق المشهور محمد أحمد العقاد (١٠) فقد قام أبو السعود بتحريض القبائل النيلية ، كى تقوم بمقاومة الحملة حتى يشغلها بعيدا عن تنفيذ مهمتها الأصـــلية وهى القضـــاء على تجـــارة الرقيق ومهـــاجمة أوكارهم . والى جانب تجار الرقيق العرب وجد عدد من تجـــار الرقيق الأوربيين الذين كان من أشهرهم التاجر المالطى ديبونو Debone وقريبه امبيلى Ambile ثم الفرنسى ملزاك Melzak وغيرهم كثيرون (١١) .

ولقد انشأ اسماعيل ديوان الويركو الذى يختص بتحصيل الضرائب من اصحاب المراكب الذين تعمل سفنهم فى النيل الأبيض ، وقد فرضت هذه الضرائب على العمال والحراس والحمالين والبحارة ، وتراوحت قيمة هذه الضريبة فيما بين ١٠٠،٢٠٠ قرشا (١٢) وقد اختص هذا الديوان ايضا بمنح تصاريح للسفن التى تبحر فى النيل الأبيض الى المديرية الاستوائية (١٣) ولم يكتف اسماعيل بكل هذه الاجراءات ، بل طلب من حكمدار السودان أن يحرر الرقيق الذين يعملون فى جميع المديريات السودانية خدما ، وخاصة عندما يتقدمون بالشكوى الى اى جهة حكومية من سوء المعاملة التى يلقونها من أسيادهم ، ففى هذه الحالة تقوم الجهة الحكومية باستدعاء صاحب الخادم او الجارية وتقوم بمساءلته ، فيما نسب اليه من قبل رقيقه ، فاذا اتضح أنه أساء معاملةالعبد أو الجاريةبالضرب،ففى الحال تقوم الجهة الحكومية بتحرير شهادة عتق الى هذا العبد او الجارية ، واما اذا حدث غير ذلك ، ففى هذه الحالة يعاد العبد أو الجارية بالتالى الى سيده بعد تلقينه بالنصائح اللازمة (١٤) .

---

(١٠) د. جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، ص ٤١ .

(١١) محمد فؤاد شكرى ، المصدر السابق ص ١٦٧ .

(١٢) Dr. Shukry M.F. : op. cit. p. 137.

(١٣) د / محمد فؤاد شكرى ، نفس المصدر ص ١٧١ .

(١٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٦ عابدين صادر تلغراف رقم ٤٢ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

لم يلجأ الرقيق الخدم الى الجهات الحكومية فقط ، بل لجأوا الى الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم والى قناصل الدول الأوربية فى السودان لكى تساعدهم الكنيسة وهؤلاء القناصل فى حصولهم على شهادات العتق وقد بلغ عدد هؤلاء العبيد الذين لجأوا الى الكنيسة الكاثوليكية والى القناصل حوالى ٥٠ عبدا ، ولكن حكمدار السودان تمكن من القاء القبض عليهم ومنحهم شهادات العتق الخاصة بتحريرهم والحق الشباب الذكور منهم بالجهادية ، وأما الفتيات فقد أطلق سراحهن (١٥) وربما يرجع السبب فى الحاق الشباب الذكور من هؤلاء العبيد بالجيش الى حاجة اسماعيل لهم ، وخاصة عند ما بدأت العلاقة المصرية الحبشية تسوء بينما لم يكن فى حاجة اليهم فى بداية حكمه فكان يتم عتقهم بمجرد تحريرهم من أيدى الجلابة .

بعد ذلك أمر اسماعيل حكمدار السودان بأن يقوم بحصر عدد الزرائب والمشاريع الموجودة فى مديرية بحر الغزال ، وفى مديرية خط الاستواء ، التى كان أصحابها يستخدمونها كمراكز تجميع لتجارتهم سواء أكانت من العبيد أم من الفيل وريش النعام (١٦) وكان قد تقرر أنه فى حالة استخدام هذه الزرائب والمشاريع كمراكز لتجارة الرقيق ، ففى هذه الحالة يصادر ما فيها من عبيد الى جانب الأشياء التجارية الأخرى لصالح الحكومة ، وفى حالة عدم ممارستها لتجارة الرقيق ، تهدم باستثناء عدم مصادرة ما بها من مواد تجارية أخرى ، بل تترك لأصحابها ، زيادة على ذلك فان اسماعيل طلب من حكمدار السودان عدم منح أى تصاريح جديدة تخول للتجار انشاء زرائب جديدة للرقيق أو مراكز تجارية فى منطقة أعالى النيل (١٧) .

أدت هذه الاجراءات الخاصة بوقف تجارة الرقيق الى حصول الحكمدارية على أعداد كبيرة من العبيد السود ، فقرر أن يلتحق منهم الذكور من الشباب

---

(١٥) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢١ عابدين وارد تلغراف رقم ٩٣ فى ٢٧ رجب سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

(١٦) محافظ ابحاث السودان — دفتر ١٦ عابدين صادر تلغراف رقم ٣٩٧ ص ٦٢ فى ١٥ شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

(١٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٦ عابدين صورة التلغراف رقم ٤٨٠ ص ٧٥ فى ٢٨ شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

بالجهادية ، واما كبار السن ، فتقرر أن يلتحقوا بالمزارع ، واما الصغار منهم سواء أكانوا من الذكور أم الاناث فتقرر أن يلتحقوا بالكتاتيب ، لتعليمهم مبادىء القراءة والكتابة ، وتقرر ايضا فى حالة رغبة كبار السن والصغار من هؤلاء الرقيق العودة الى بلادهم فلا مانع من أن يعودوا بعد أن تسلمهم الحكمدارية شهادات عتقهم على شرط أن تقوم الحكمدارية بتوصيلهم الى نهاية حدودها (١٨) . وكان قد تقرر ايضا أن تقوم الحكمدارية بتزويج الفتيات اللائى يرغبن فى الزواج منهم الى جنود الجهادية وذلك على حسب ما يقضى به الكتاب والسنة .

وكان اسماعيل قد طلب من حكمدار السودان أن يعين عددا من الجواسيس ، وذلك لمراقبة تحركات تجار الرقيق وقد تمكن هؤلاء الجواسيس من معرفة جهة تابعة لدارفور تسمى كامبيه وكان سكانها يمارسون تجارة الرقيق ، واخبروا الحكمدارية بذلك ، فسيرت بدورها قوة عسكرية قوامها ٤٠٠ جندى من الخيالة وذلك للقضاء على تجار الرقيق فيها وهناك تمكنوا من ضبط ما يقرب من ١٦٠٠ عبد كان منهم ١٠٠٠ من الذكور ، ٦٠٠ من النساء والصبيان والأطفال ، وكانوا جميعا فى حالة سيئة بسبب تعرضهم للمرض والجوع ، ولكن بعد وصولهم الى مركز الحكمدارية ، منح السليم منهم شهادات العتق وبعض المواد الغذائية تمهيدا لارسالهم الى بلادهم الأصلية ، واما المرضى منهم والذين بلغ عددهم نحو ٩٠٠ شخص تركوا للعلاج فى مركز الأردى وخصص لهم طبيب للاشراف على معالجتهم ، بالاضافة الى تزويدهم بما يلزمهم من غذاء . وكان مدير كردفان أيضا قد تمكن من ضبط ٥٩١ عبدا كان منهم٣٥٩ من الذكور ، وزعوا على النحو التالى :

١٥٧ على الجهادية .

٩٦ على المدارس لتعليمهم القراءة والكتابة ، ٦ ستة كانوا قد توفوا واما الاناث فبلغ عددهن ٣٣٢ جارية وزعن كما يلى :

١٩ كن سراري

١٦ توفين .

---

(١٨) محافظ أبحاث السودان ـ دفتر ١٥ عابدن ، صادر تلغراف رقم ٤٠١ فى ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ .

٢٩٧ زوجن لجنود الجهادية (١٩)

لما علم اسماعيل بعدد الرقيق الذى تم تحريره من أيدى الجلابة ، طلب من حكمدار السودان الا يسمح لهم بالرحيل الى بلادهم ، وفى هذا الصدد يقول ما نصه :

« انهم ربما يقعون فريسة فى أيدى الجلابة مرة أخرى » وطلب منه أيضا أن يلحق الشباب الذكور منهم بالجهادية (٢٠) ويبدو أن الغرض من ضم هؤلاء العبيد الى الجهادية هو حاجة اسماعيل الى زيادة عدد جيشه ، وخاصة عندما بدأ يرسل البعثات الكشفية الى المناطق النائية ، وعندما زادت علاقته سوءا مع الحبشة ونظرا لتزايد عدد الرقيق المحرر وخاصة من الشباب الذكور الذين تتراوح أعمارهم فيما بين ١٨ ، ٢٢ سنة ، فقد طلب حكمدار السودان من اسماعيل أن يوافقه على ارسال هؤلاء العبيد الى مصر ، كى يتم تدريبهم فيها عسكريا ، ثم يعودون بالتالى الى السودان ، ليقوموا بالخدمة العسكرية فى بلادهم (٢١) لأنهم لا يتأثرون بمناخها القاسى ، بخلاف الجنود المصريين الذين كانوا لايميلون الى الخدمة فى البلاد السودانية ، وذلك لأنهم كانوا يتعرضون للامراض الخطيرة ، وقد وافق اسماعيل على مطلب الحكمدار على شرط أن يرسل هذه الاعداد على دفعات . ونتيجة لسوء العلاقات مع الحبشة وحاجة اسماعيل الى زيادة قواته المحاربة وامكانية اعتماده على أبناء السودان طلب من حكمدار السودان ان يقوم بشراء العبيد الذين يعملون لدى السكان الوطنيين ، ويرسلهم الى مصر الى جانب العبيد الذين يتم تحريرهم من تجار الرقيق ، وقد تراوح سعر العبد الذى تم شراؤه من الأهالى بنحو ٨٠٠ قرشا وكان الحكمدار قد خير الأهالى بين حصولهم على أثمان هؤلاء العبيد نقدا أو ان يعطوهم للحكمدارية فى مقابل أن تخصم أثمانهم من قيمة الضرائب المقررة عليهم (٢٢) .

---

(١٩) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٨٧٥ ، وثيقة ٢ ص١١٠ فى ٢٩ جماد أول عام ١٢٩١هـ الموافق ١٨٧٤م .

(٢٠) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٠ صادر تلغراف ص٩١ رقم ٥٥٥ فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٩١هـ الموافق ١٨٧٤م .

(٢١) محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٢٨ عابدين ، وارد تلغراف رقم ٣٢٢ ص٤٨ فى ٢٧ شوال ١٢٩١هـ الموافق ١٨٧٤م .

(٢٢) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٢ وارد تلغراف رقم ١١١ ص١٦ فى ١٨ رجب سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

يبدو أن العبيد الذين تم الحصول عليهم بالمجان ، وبالشراء لم يفوا بحاجة اسماعيل مما اضطره ذلك الى أن يطلب من محافظ سواحل البحر الأحمر ، أن يجند الوطنيين من الشباب الذكور من أبناء الصومال واشترط أن تتراوح أعمارهم فيما بين ١٩ ، ٢٢ سنة وتقرر أن تتراوح مدة خدمتهم بالجيش فيما بين ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ سنوات وطلب منه أيضا أن يأخذ عليهم اقرارات معتمدة من مشايخهم ومن عمدهم تفيد امتثالهم لاحكام القوانين العسكرية وربما تفيد أيضا أنهم دخلوا الخدمة العسكرية بمحض ارادتهم ، وحتى يتجنب الخديو اية معارضة أو نقد يوجه اليه من جانب القناصل الأوربيين الموجودين فى بعض موانى البحر الاحمر الغربية ، وحتى لايهتم أيضا بعدم محاربته للرق فى افريقيا، ومن الملاحظ أن اسماعيل لم يتخذ مثل هذه الاجراءات فى بقية البلدان الأفريقية الاخرى لعل هذا كان لخلوها من القناصل الأوربيين . وطلب اسماعيل كذلك من المحافظ أن يرسل العدد الذى يتم تجنيده الى مصر على دفعات ، بحيث يتراوح عدد الدفعة فيما بين ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ جندى (٢٣) . زيادة على ذلك فانه طلب من حكمدار السودان أن يقوم بشراء العبيد من الجلابة بحيث لاتضع القيود الحديدية فى أيديهم حتى لايشعروا بأنهم رقيق ، وطلب منه أيضا أن لايشترى العبيد من الجهات التى يوجد بها غوردون باشا (٢٤) . ومن المرجح أن اسماعيل لم يكن جادا فى وقف تجارة الرقيق ، لأنها فيما يبدو كانت تتعارض مع مصالحه العسكرية والاقتصادية لذلك نجده يطلب من مدير هرر أن يقوم بشراء العبيد من تجار الرقيق ، ثم يقوم بتدريبهم على استخدام الاسلحة التى تعمل بالكبسول ، بعد ذلك يتم تدريبهم على الأسلحة الرامنتون (٢٥) تمهيدا لانضمامهم الى صفوف القوات المسلحة .

لم يكتف اسماعيل بكل هذه الاجراءات الخاصة بجلب أكبر عدد من العبيد سواء كان ذلك بطريق تحريرهم من أيدى الجلابة ، أو بالشراء من الاهالى ،

---

(٢٣) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٠ أوامر عربى ص١٨ فى ١٦ رجب سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

(٢٤) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٢٢ عابدين ، وثيقة ١٠٧ فى ١٦ صفر سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

(٢٥) وثيقة ٣٣ فى ١٢ شوال سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

أو بالتجنيد ، بل أنه طلب من كبير تجار دارفور عام ١٨٧٦م أن يرسل الى مصر أكبر عدد ممكن من العبيد على أن يحصل فى مقابلهم على بضائع مصرية(٢٦) فمن المرجح أن يكون السبب فى ذلك هو حاجة اسماعيل الملحة الى تزويد جيشه بأكبر عدد منهم وخاصة عندما قرر أن ينتقم من الحبشة نتيجة لهزيمة جيشه أمام قواتها فى عام ١٨٧٥م فى واقعتى جوندیت واوسه .

ومن الملاحظ أن اسماعيل بعد أن أنهى حروبه مع الحبشة اصبح فى غير حاجة الى العبيد السود لذلك نجده يتخذ بعض الخطوات الجادة — لالغاء تجارة الرق فقد عين موريس باشا فى وظيفة مفتش بحيث يقوم بالتفتيش على السفن التى تمر بالبحر الأحمر والتى تحمل رقيقا ، ففى حالة عثوره على احدى السفن التى تحمل رقيقا يحرر ما عليها من رقيق ويمنحهم شهادات العتق ، وتجرى محاكمة طاقم السفينة وتجار الرقيق .

لم يستمر موريس باشا فى مهمته مدة طويلة ، بل عين بدلا منه المستر مالكولم ضابط البحرية الانجليزى (٢٧) وبمجرد وصول مالكولم الى بربرة قام بتفتيش الأماكن التى كان من المحتمل أن يوجد بها رقيق ، ولكنه لم يجد أى عدد من العبيد ، كما قام ايضا بالمرور على زيلع ، ومن بعدها توجه الى تجره للتفتيش عليها (٢٨) . وأثناء قيامه برحلته التفتيشية وجد أن تجارة الرقيق لاتزال مستمرة وعلى نطاق واسع ، وخاصة فى المنطقة الواقعة بين مينائى زيلع وتاجورة ، وكان يقوم بهذه التجارة أسرة أبو بكر شحيم ، فاضطر مالكولم الى القاء القبض على أفراد هذه الأسرة واحالة قضيتهم على حكمدار السودان ، غوردون باشا ، وذلك للنظر فيها ولكن غوردون رفض اتخاذ أى اجراء ضد هذه الأسرة خشية أن يثير أفرادها القلاقل أمام الحكومة المصرية

---

(٢٦) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٩ فى ١٢ شوال سنة ١٢٩٢هـ الموافق سنة ١٨٧٥م .

(٢٧) محافظ أبحاث السودان — دفتر ١٨ وثيقة ٢٧ ص١٢ فى ١٢ صفر سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

(٢٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣١ وارد معية عربى ، ص١٩ وثيقة ٥ فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

فى منطقة زيلع وكان ذلك فى مايو سنة ١٨٧٧م ، واضـــطر غردون باشا الى أن يطلق سراح افراد هذه الأسرة الذين كان من بينهم ابو بكر شحيم نفسه وازاء هذا الموقف اضطر مالكولم الى تقديم استقالته (٢٩) .

يبدو ان بريطانيا لم تكن راضية عن جميع الخطوات التى اتخذها اسماعيل بشأن العمل على الغاء تجارة الرقيق ، ومن المرجح ايضا انها وجدت الفرصة السانحة لكى تضع اقدامها فى افريقيا ؛ عندئذ طلبت من اسماعيل ان يوقع معها على معاهدة تتعهد فيها الدولتان على العمل المشترك من أجل الغاء الرق فى افريقيا ، وربما كانت بريطانيا ترمى من وراء هذا الى وضع العراقيل امام المشروعات الاقتصادية لبعض الدول الاوربية التى تعتمد اساسا على الأيدى العاملة التى يتم الحصول عليها من قارة افريقيا عن طريق الشراء، والتى تستخدم فى الأعمال الزراعية ثم فى الأعمال الصناعية فيما بعد (٣٠) .

وافق اسماعيل على التوقيع على هذه المعاهدة على الرغم من انها سوف تصيب مشروعاته العسكرية والاقتصادية بالشلل ، ولكنه وافق فى مقابل اعتراف بريطانيا بالسيادة المصرية على افريقيا الشرقية حتى راس حافون (٣١) بالاضافة الى ذلك فان بريطانيا قامت بشراء نصيب مصر من اسهم قناة السويس ، لكى يسدد اسماعيل ارباح ديونه المتراكمة من عام ١٨٧٥م والتى بلغت فى جملتها اربعة ملايين جنيه مصرى وفى هذا الصدد يقول جون برايت John Bright احد اقطاب حزب الاحرار ما نصه :

« انه يعتبر صفقة اسهم الخديو ضربة كبرى وجهت الى تماسك الامبراطورية العثمانية وسلامة اراضيها (٣٢) » .

---

(٢٩) د. محمد فؤاد شكرى ، المصدر السابق ص ٢١١ .

(٣٠) د. جلال الدين مصطفى يحى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا ص ٢٢

(٣١) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان فى القرن ١٩ ، المصدر السـابق ص ١٣٥ .

(٣٢) د. احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٨ .

وقد جاء ببنود معاهدة الغاء الرق التى عقدت بين مصر من ناحية وبين بريطانيا من ناحية اخرى فى ٤ اغسطس عام ١٨٧٧م عدد من البنود ، اذكر على سبيل المثال اهم ما جاء بها : —

— يصير منع والغاء الاتجار فى الرقيق السودانى والحبشى بحيث لايسمح بدخوله الى مصر أو الى الجهات التابعة لها فى افريقيا العليا وسواحل البحر الأحمر ، وتقرر أن يقوم مأمورو الحكومة فى الثغور وفى مناطق الحدود بمراعاة ضبط الرقيق الذى يوجد مع التجار ، والعمل على اعطائه حريته ، وتقرر أيضا عدم السماح بخروج الرقيق من مصر وملحقاتها الا اذا كان هذا الرقيق قد حصـــــل على شهادات العتق .

— وقد تقرر أيضا انشاء عدد من المأموريات (مصالح) وذلك للقيام بشئون الرقيق فى كل من الاسكندرية والوجه البحرى والقاهرة والوجه القبلى، وكان الغرض من انشاء هذه المأموريات هو أن تقوم بمنح الرقيق المحرر شهادات العتق ،والباسبورتات التى تخول للرق الخروج أو الدخول الى مصر . وكانت كل مأمورية من هذه المأموريات تخضع لاشراف مفتش عموم الجهة التى تقع فيها المأمورية ، وكانت كل مأمورية تضم اثنين من الموظفين يشغل احدهما وظيفة رئيس المأمورية ، ويشغل الثانى وظيفة كاتب المأمورية ؛ وكان الاثنان يقومان بتحرير المحاضر اللازمة للرقيق المضبوط فى السجلات الخاصة بذلك وكانت هذه المحاضر تتضمن بيانات عن سن الرقيق ، وجنسياتهم ، والجهة التى قدموا منها ، وهل حصلوا على شهادات عتق من عدمه .

— تقرر كذلك أنه فى حالة ضبط اى عدد من تجار الرقيق المحليين يصير ارسالهم الى مركز المديرية ، وذلك لاجراء التحقيق معهم تمهيدا لمحاكمتهم على حسب ما تقضى به بنود المعاهدة ؛ وأما اذا كان أحد هؤلاء التجار من الأوربيين ففى هذه الحالة تحرر المحاضر اللازمة بالواقعة ثم ترسل الى نظاره الخارجية ، لاجراء اللازم نحو محاكمتهم بواسطة دولهم وكان يستثنى من ذلك التجار الانجليز الذين تقرر بشأنهم أن يرسلوا الى اقرب قنصلية انجليزية ، كى تقوم بالتحقيق معهم .

وتقرر أيضا أنه فى حالة اتهام أحد أصحاب الرقيق عبيده بالسرقة - ففى هذه الحالة تقوم مأمورية الرقيق بمنح هؤلاء العبيد شهادات العتق ثم تقوم برفع قضيتهم الى جهة الاختصاص ، لأنهما أصبحا طرفين متساويين فى النزاع (سـيد ومسود).

ـ وقد جاء ببنود هذه المعاهدة أيضا ، أنه تقرر وقف الأتجار فى الرقيق فى مصر فى بحر سبع سنوات ، وفى السودان وبعض البلدان الافريقية الاخرى فى ظرف اثنتى عشرة سنة أى ابتداء من تاريخ توقيع هذه المعاهدة ؛ بينما تقرر أن يستمر بيع الرقيق دون توقف من عائلة الى أخرى فى خلال المدد الوارد ذكرها بالمعاهدة والتى تقرر أن يتوقف بعد انقضائها الاتجار فى الرق بيعا أو شراءا .

ـ وتقرر كذلك انه فى حالة ضبط أى شخص يتجر فى الرقيق وخاصة بعد انقضاء المدد التى حددتها بنود المعاهدة يصير مجازاته ، بالاشغال الشاقة مدة لاتقل عن خمسة شهور ولاتزيد عن خمس سنوات وتنطبق نفس العقوبة أيضا على الشخص الذى يحاول حرمان أى عبد من ورقة عتقه .

ـ وتقرر ايضا أنه فى حالة ضبط أى مركب تحمل رقيقا سودانيا كان أو حبشيا يصير تحريره ومنحه شهادات العتق الدالة على ذلك ويحاكم طاقم هذه المركب والتجار أمام محكمة عسكرية ، وفى حالة كون هذهالسفينةانجيلزية يصير تسليمها الى اقرب جهة من جهات الحكومة الانجليزية ، مثل عدن مثلا ، كى تقوم هذه الجهة بمحاكمة طاقم هذه السفينة على حسب ماتقضى به بنود معاهدة الغاء الرق .

ـ وجاء باحد بنود هذه المعاهدة أنه فى حالة رفض الرقيق المعتوق الذهاب الى بلاده ورغبته فى المعيشة فى القطر المصرى ، يوزع الذكور منهم على الأعمال التى تلائمهم ، سواء كان ذلك فى الجهادية أو فى الأعمال الزراعية أو فى المصانع ، وأما الرقيق صغير السن ، فيصير الحاقه بالمدارس أو ببعض الحرف الصناعية الأخرى (٣٣) .

---

(٣٣) محفظة ١ صورة اللائحة ونسخة المعاهدة الخاصة بمنع الاتجار فى الرقيق فى محرم سنة ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٧م .

وبعد أن تم توقيع معاهدة الرق بدأ غردون باشا حكمدار السودان فى تنفيذ ما جاء ببنودها ، وذلك باتخاذ الاجراءات التالية : ــ

١ ــ انه يجب على الحكومة المصرية أن تعتمد تملك الرقيق لأصحابه (اى قيده فى السجلات) وترجع كل من هرب منه اليهم .

٢ ــ وفى حالة ما يثبت أن أحد الأرقاء قد عومل بقسوة من قبل صاحبه ففى هذه الحالة تقوم الحكومة باعطاء هذا العبد ورقة عتقه .

٣ ــ على كل مالك للرق أن يقوم بقيد اسم مملوكه فى المديرية التابع لها هذا المالك ، على شرط أن يأخذ شهادة تخول له حق ملكية هذا العبد .

٤ ــ لا يجوز لأحد من أصحاب الرقيق أن يطلب رد عبيده الذين هربوا منه ، الا اذا كان معه تذكرة تفيد أحقيته فى ملكية هؤلاء الأرقاء .

٥ ــ جميع الأرقاء الذين يصير بيعهم أو مبادلتهم ، ينبغى فى هذه الحالة أن يكون ذلك مظهرا على التذاكر الخاصة بأصحاب الرقيق ومسجلا بالحكومة

٦ ــ يجب أن يوضح بالتذكرة التى تعطى لصاحب العبد اسم المديرية المستخرجة منها هذه التذكرة ، واسم صاحب الرق واسم المملوك ، ويجب أن يذكر فيها هذه العبارة « أن هذا العبد سوف يكون معتوقا بعد اثنتى عشرة سنة ، ابتداء من تاريخ توقيع معاهدة الغاء الرق .

٧ ــ ليس لجميع رعايا الدول الأجنبية والقاطنين بمصر وملحقاتها الحق فى تملك الرقيق ، ولا الاتجار فيه ، وللحكومة المصرية الحق فى ان تعطى الحرية الى اى عبد تشاء .

٨ ــ كل من يجرؤ على محاربة الجهات السودانية وغزوها بغرض جلب الرقيق او التعدى على حدود الحكمدارية ، للخروج منها ومعه رقيق يصير مجازاته بالجزاء الرادع (٣٤) .

---

(٣٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٤٦ عابدين ، وارد تلغراف رقم ٢٤٨ ص ٦٢ فى ٢٢ ربيع ثان سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

زيادة على ذلك فان غردون باشا كان قد طلب من الحكومة المصرية ان تشدد الحراسة على الطرق التى تربط بين دارفور وكل من حلفا واسوان ، واسنا وقنا واسيوط ، حتى لايلجأ النخاسة الى استخدامها وقد استجابت الحكومة لهذا المطلب وكلفت مديرى هذه المديريات بمراقبة هذه الطرق (٣٥) .

لم يكتف غردون بذلك بل قام بعزل عدد من المديرين المصريين ، من أمثال محمد رؤوف باشا مدير عرر ، ويوسف حسن الشلالى مدير بحر الغزال ، وعين بدلا منهم عددا من الأوربيين من أمثال شارل ريجوليه — Charl Rigolet الفرنسى الجنسية الذى عين مديرا لبلدة دارا ، وسلاتين Slatin النمساوى الجنسية الذى خلف ريجوليه فى حكم دارا ، واملياني Emiliani الايطالى الجنسية الذى عين مديرا لبلدة كوبى ، وفردريك روسيه Rosset الالمانى الجنسية الذى عين مديرا لدارفور ، وبعد موته عين بدلا منه ميسيدليا Messedaglia الايطالى الجنسية وجيكلر Giegler الالمانى الجنسية والذى عين مفتشا لعموم تلغراف السودان ، ثم عين بعد ذلك مديرا عاما لمصلحة تجارة الرقيق ، وبروت Brout الامريكى الجنسية والذى عين مديرا عاما لمديرية خط الاستواء ، ومن بعده حكمها ادوارد شنتزر Shnitzer الالمانى الجنسية والذى سمى فيما بعد باسم امين باشا ثم جيسى Gessi الايطالى الجنسية والذى عين مدير لمديرية بحر الغوزال (٣٦) .

قام هؤلاء المديرون الجدد بتشديد الرقابة على تجارة الرقيق ، وعلى موظفى الحكمدارية أيضا ، وندلل على ذلك بانه عندما قابل جيسى مدير بحر الغزال ، احدى ذهبيات المرى القادمة من مديرية خط الاستواء ، وبعد تفتيشها وجدها تحمل عددا من الرقيق التابع لبحارة هذه الذهبية . فقام من فوره بابلاغ غوردون باشا بهذا الحادث فقرر بالتالى محاكمة طاقم هذه

---

(٣٥) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٣٦ عابدين صادر تلغراف فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م .

(٣٦) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان المصدر السابق ص ص ١٣٦ — ١٣٨ .

الذهبية ، فعوقب رئيس البحارة المدعو عبد الكريم نقورى بالسجن لمدة ٨ شهور بليمان ترسانة الخرطوم ، مع خصم ١٣٤ قرشا ، ١٥ بارة من مرتبه، بالاضافة الى رفته من خدمة المرى ، وعوقب زميله المدعو صالح عبد الرجال بالسجن ٦ شهور بليمان ترسانة الخرطوم ، ورفته من وظيفته وعوقب اليوزباشي مصطفى افندى فتيح بالسجن لمدة ٣١ يوما ، وذلك لانه كان يعلم بوجود رقيق بالذهبية ولم يبلغ عنه ، كما عوقب مدير فاشودة برفته من الخدمة لانه راى الرقيق اثناء نزوله من الذهبية ولم يتخذ اى اجراء من جانبه (٣٧) .

ادت سياسة الحزم التى اتبعها غردون ومديروه ضد تجارة الرقيق الى قيام عدة ثورات محلية احداها فى بحر الغزال بقيادة سليمان بن الزبير ولكن قوات الحكمدارية التى كانت تحت قيادة جيسى تصدت له وهزمته فى ١٤ يوليو سنة ١٨٧٩م . وقامت ثورة اخرى فى دارفور بقيادة هارون احد امرائها ، ولكنه هزم فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٩ امام قوات الحكمدارية وقامت ثورة ثالثة فى كردفان بقيادة الصباحى ولكنها منيت بالفشل والهزيمة(٣٨)

وقد ذكر غردون فى احد تقاريره ما نصه :

« انه بسبب خطر تجارة الرق فى النيل الأبيض فقد وجهت اليها ضربات مميتة من قبل الحكمدارية فلم يستطع احد من الاشخاص ان يقوم بها سوى غردون الذى نفذ تعليمات صاحب السمو الخديو اسماعيل الخاصة بمنع والغاء هذه التجارة (٣٩) » .

ولكن على الرغم من كل هذه المجهودات التى قام بها اسماعيل بغرض الغاء تجارة الرق ، الا انها لم تسفر عن شيء ، وظلت هذه التجارة تمارس

---

(٣٧) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٣١ وارد معية عربى ص٥٦ وثيقة ١٣ فى ٦ شعبان سنة ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م .

(٣٨) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، المصدر السابق ص١٣٨

(٣٩) The governor general : Summary of letters and reports of the province of the Equator. P. 33.

بعد حكمه مع انه كان يبدو جادا فى العمل على الغائها ، وربما يرجع ذلك الى أن حروبه مع الحبشة ، كانت قد انتهت ولم يعد فى حاجة الى تجنيد العبيد فى جيشـــــه مثلما كان متبعا من قبـــل ، ويمكن تعليـــل اســـباب استمرار تجارة الرقيق فى افريقيا الى عدم احكام الرقابة الحازمة على تجار الرقيـــق الذين اســـــتغلوا الطرق العديدة فى افريقيا فى نقل تجارتهم

وهكذا نرى أن الخديو اسماعيل قد قام بمجهودات واضحة فيما يتعلق بنظرته الى أبناء السودان ، وابناء افريقيا ، وفيما يتعلق بالقرارات التى اتخذها دوليا وداخليا وفيما يتعلق بمسألة عويصة ، لها جذور عميقة مثل مسألة الرق . وحتى اذا لم تكن النتائج التى وصل اليها ايجابية الا انها كانت خطوات على طريق تغيير البنيان الاجتماعى فى هذا الكيان ، المصرى فى افريقيا .

وكانت المسألة تحتاج الى وقت ، وكان هناك عناصر ذات مصالح وعناصر تقليدية ، تقف فى وجه امكانية حدوث مثل هذا التطور وستكون مسألة الرق أو الحرية بالنسبة لبعض اقاليم السودان من ضمن المسائل التى سوف يستغلها البعض ، من اجل تقويض الوجود المصرى هناك مع نشوب الثورة المهـــدية .

الفصل الثامن

الزراعة والغلات الزراعية (عصر اسماعيل)

١ ــ الزراعة :

كانت الزراعة فى السودان تمارس بطريقة بدائية ، رغم ما أدخله محمد على عليها من تحسينات ، سواء كان ذلك فى مجال ارساله لعدد من مهرة الفلاحين المصريين الذين كانوا يقومون بالاشراف عليها بالاضافة الى قيامهم بتعليم أبناء السودان طرق الزراعة الحديثة ، أو كان ذلك فى مجال ارساله لعدد من أسلحة المحاريث التى كانت تستخدم فى مصر وذلك لاستخدامها هناك .

فحينما كان الفلاح السودانى يفكر فى زراعة أرضه ، كان يقوم بحرق الأشجار والحشائش الموجودة عليها ، لأن تركها بعوق نمو النباتات الزراعية ، ثم يقوم بعد ذلك بتنظيفها من مخالفات عملية الحرق (١) ثم يقوم أيضا بحفر الأرض الى نقر ، بواسطة المسلوكه (٢) لكى يضع فيها البذور المراد زراعتها، ثم يغطيها بالتراب ، ويتركها للطبيعة للتولى أمرها (٣) .

Ramasy, M. and Jewitt, T.N. : agriculture forests and soils of the jur ironstone country of Bahr El-Ghazal province sudan. Ministry of agreculture Sudan goverment. Bul. N. 9. P. 13.

(٢) أنظر صفحة ٩٠ هامش ٩

(٣) تقرير أحمد ممتاز ــ عام ١٨٧١م ــ المحفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

وكان من الغلات الزراعية التى كانت تزرع فى السودان الذرة ، والدخن ، والقمح ، واللوبيا ، والفاصوليا ، والسمسم ، والفول السودانى ، والحمص . ولكن الذرة كانت من اهم هذه المحاصيل لأن السكان كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم (٤) . والى جانب المحاصيل السابقة ، زرع القصب فى دنقلة (٥) وزرع القطن فى اماكن متفرقة من السودان (٦) ولكنه لم يكن مشهورا ،كبقية الغلات الزراعية الاخرى .

ولم يكن للسكان السودانيين اى نشاط يذكر بشأن زراعة اشجار الفاكهة ، وربما كان يرجع ذلك الى عدم معرفتهم لها ، ومن المرجح وجود هذه الأشجار فى بعض الأماكن المتفرقة من السودان ، وهذا من غير المؤكد ، لأنها لو كانت موجودة لعلم بها السكان واستغلوا ثمارها كبقية المحاصيل الأخرى (٧) .

اعتمد السكان السودانيون فى رى زراعتهم على مياه الأمطار سواء كانت الشتوية منها أو الصيفية (٨) ولكن على الرغم من توفر المياه والتربة الخصبة الا انهم كانوا لايميلون الى العمل الزراعى ، بل يميلون الى الكسل والخمول وربما كان يرجع ذلك الى سوء المناخ واعتمادهم على ما يحصلون عليه من الطبيعة .

---

(٤) The Ministry of agriculture sudan Government: Annual report for the year 1st July 1952 to 30 June 1953. P. 6.

(٥) Ferguson, H.S. : Sugar Cane trails of the flood Plaines of the Bahr El-Geble in the Anglo-Egyptian Sudan. P. 20.

(٦) Jewitt, T.N. : Seasonal variations in Cotton yields in the Sudan Gezira and soil fertility. Ministry of agriculture Sudan government memoirs of research division. P. 47.

(٧) Jackson, J.k. and Shawki, M.k. : Shifting cultivation in the Sudan M.A.S.G. N.2. P. 211.

(٨) John Smith : distribution of tree species in the Sudan in relation to rainfall and soil texture. P. 7.

ولكن لما تولى اسماعيل حكم مصر فى عام ١٨٦٣م رغب فى النهوض بالزراعة السودانية ، كى يحسن أحوال البلاد الاقتصادية ، وخاصة بعد انهيار الاقتصاد فى بعض الأقاليم السودانية ، مثل بربر والخرطوم وسواكن وكسلا.

وكان من نتيجة تدهور هذه الحالة الاقتصادية أن طلب حكمدار السودان من الخديو اسماعيل أن يزوده بكمية من القمح ، كى يقوم بتوزيعها على سكان الأقاليم التى تعرض اقتصادها للانهيار (٩) . الذى أدى بالتالى الى أن عجز البعض منها مثل اقليم التاكة عن دفع مرتبات الجند والموظفين لمدة بضعة شهور ، مما أضطر مدير هذا الاقليم الى أن يطلب من الخديو أن يرسل له أربعة آلاف كيسة وذلك ليتمكن من صرف المرتبات الشهرية للعاملين فى الأقليم (١٠)

ونظرا لهذه الظروف ، فقد طلب اسماعيل من حكمدار السودان أن يهتم بشئون البلاد ، ويتضح ذلك من قوله:

« ومن جراء نقص المحصول الناشىء عن قلة نزول الامطار فى تلك السنة الماضية ، فتعذر صرف مرتبات الجند ، بالتمام وفى أوقاتها وكما لا يخفى عليكم أن جل غايتنا وآمالنا منحصرة فى استكمال أسباب رخاء العيش والسعادة لجميع الأهالى الداخلين فى حوزة الحكومة المصرية ، والسكان عموما ، خصوصا تمدين الأقاليم السودانية وتوسيع دائرة التجارة والزراعة فيها (١١) » .

ومن أجل العمل على حل هذه الأزمة قرر اسماعيل الاهتمام بالزراعة السودانية عامة والقطن بصفة خاصة ، وذلك ليتمكن السكان من تسديد ما عليهم

---

(٩) دفتر ٥٥٧ معية تركى وثيقة ٦٩ ص٣٩ فى ٧ رجب سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م .

(١٠) دفتر ٥٣٩ — معية تركى ، وثيقة ١٦١ فى ٢٨ محرم سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م .

(١١) دفتر ٥٥٨ معية تركى ، وثيقة ١ ص٤ فى ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م .

من ضرائب متأخرة للحكومة ، بالاضافة الى زيادة دخلهم ، حتى يعم الرخاء والرفاهية جميع البلدان .

٣ ــ الغلات الزراعية :

ــ القطن :

كانت زراعة القطن (١٢) منتشرة على نطاق ضيق فى بعض الاقاليم السودانية ، وكان يقال أن شجرة القطن السودانى تعمر مدة طويلةمن الزمن، تصل الى ١٥ أو ٢٠ سنة وكان هذا النوع من القطن يتحمل العطش ويقاوم البرد وهجمات الجراد ، ففى فصل الصيف تتساقط أوراقه وتنكمش لوزانه ، ولكن ماتلبث أن تعود الى الأنبات من جديد بمجرد أن ينقضى فصل الصيف (١٣) ويبدو أن السبب فى تعمير أشجار القطن هذه المدة الطويلة من الزمن ، يرجع الى خصوبة التربة وملاءمة المناخ لمثل هذه الغلة ، وربما يرجع أيضا الى أن السكان كانوا لايقومون فيما يبدو بازالة هذه الشجيرات ؛ بعد جنى المحصول وذلك لأنهم لايستقرون فى منطقة بعينها ، بل كانوا ينتقلون من مكان لآخر .

---

(١٢) ذكر السير هارلد ميتشيل Sir Harld Micheal أن السودان كان الموطن الأصلى للقطن طويل التيلة ، والذى زرع فى مصر فيما بعد . ويؤكد قوله المسيو جوميل Jumel الفرنسى الجنسية والذى أدخل الى مصر بذور القطن السودانى فى الفترة ما بين ١٨٢٠ ــ ١٨٢٦م . فعندما زار جوميل السودان ورأى القطن مزروع فى حديقة منزلى كل من مدير دنقلة وسنار، أحضر معه الى مصر كمية من بذور هذا النوع من القطن وقد زرعت هذه البذور فى مصر بعد ذلك على نطاق واسع ولكن على الرغم من وجود زراعة القطن فى السودان ، الا أن السكان كانوا لايستغلونها الاستغلال الجيد حتى أنهم كانوا يستوردون الأقمشة من شمال افريقيا عن طريق وادى النيل ومن غرب افريقيا ، وكانت دارفور مركزا هاما من مراكز تجارة الأقمشة فى السودان ، انظر الكتاب التالى وهو عن الزراعة فى السودان :

(١٣) Numerous authors : agriculture in the Sudan, London, 1948. P. 30.

وقبل أن يبدأ اسماعيل فى زراعة القطن فى السودان قرر أن يتخذ عدة خطوات ، كانت على جانب كبير من الأهمية ، وذلك من أجل النهوض بهذه الزراعة .

٣ ــ الخطوات التى اتخذها اسماعيل :

كان من أول هذه الخطوات التى اتخذها اسماعيل قيامه بعمل مسح شامل لجميع الأراضى السودانية وذلك ليتمكن من معرفة الأراضى التى تصلح للزراعة عامة والقطن خاصة ، وقد اتضح من هذا المسح أن مساحة الأرض التى تصلح للزراعة فى مصوع تبلغ حوالى ٨٧٠٠ ميل٢ ، أى ما يعادل ٨ر١٠١ر٧٦٢ فدانا ، وبلغت جملة الأراضى التى تصلح لزراعة القطن حوالى ١ر٠١٢ر٧٤٩ فدانا ، ولكن على الرغم من كل هذه المساحة الواسعة والصالحة للزراعة الا أن السكان لم يزرعوا منها الا أجزاء صغيرة جدا ، لاتكاد تذكر ، فكانوا يزرعونها بالذرة العويجة والدخن ، وكان انتاجها لايكفى حاجة السكان ، مما اضطرهم ذلك الى استيراد باقى احتياجاتهم من اقليم التاكه ، فلو اهتم هؤلاء السكان بزراعة أرضهم ، لتغيرت ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية ، واصبحوا فى وضع أحسن حالا عما هم عليه الان (١٣) .

وقد جاء بالتقرير أيضا أن مساحة أرض سواكن تبلغ حوالى ٢٢٠ر٠٠٠ الف فدان ، كانت جميعها صالحة للزراعة وكان فى الامكان زراعتها باستخدام مياه السيول ، التى توجد بكثرة فى غربى سواكن ، زيادة على ذلك فانها تتميز بخصوبة التربة (١٤) وقد بلغت مساحة زولا حوالى ٢٠٠٠ الفى فدان ، كانت جميعها صالحة للزراعة وكان فى الامكان زراعة هذه المساحة لو استغلت مياه أحد الاخوار القريب منها ، وبالفعل شرع محافظ مصوع فى احضار أحد المهندسين الفرنسيين لتنفيذ هذا المشروع (١٥) وكان من الاقاليم التى تصلح

---

(١٣) ديوان عربى رقم ٣/٧٣ فى ١٨ الحجة سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م

(١٤) تقرير عن الأراضى الصالحة للزراعة فى السودان ــ محفظة ١٥٣ .

(١٥) دفتر ١٩٣٦ ، وثيقة ١٤٢ ص٢١ فى ٢٤ ربيع ثانى سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

ارضها للزراعة اقليم سنكات الذى تميز بخصوبة تربته فكان يمكن زراعته بالقطن الى جانب الذرة والدخن (١٦) ومن بعد هذه الاقاليم يأتى اقليم التاكه الذى تبلغ مساحته ٧ مليون فدان كان منها ٢ مليون فدان فى خور الجاش (١٧)، وكان سكانها يعملون بالزراعة ، ولكن بطريقة بدائية مما جعل انتاجهم ضئيلا جدا ، وكان انتاج جهاتها الشمالية يصدر الى سواكن أو توكر ، بينما كان يصدر انتاجها من ناحية الجنوب الى قوز رجب ، ومنها كان يشحن الى المحروسة . ومن بعد التاكه تأتى منطقة القضارف ، التى تتميز بخصوبة التربة ؛ حيث تتشقق أرضها الى شقوق كثيرة أثناء موسم الجفاف ، فاذا ما حل موسم المطر وانسابت المياه فى هذه الشقوق تشبعت الأرض بالماء وتوقف المسير فيها نهائيا لمدة شهر أو شهرين ويقول التقرير انه كان فى امكان زراعة ٢٠٠ الف فدان من أرض القضـــارف . ومن بعـدها تأتى سنار التى بلغت مساحتها حوالى ٣٠٠،٠٠٠ الف فدان وتتميز أرضها بالخصـــوبة وكانت تزرع بالســـمسم الذى بيـع الاردب منـه فى ذلك الوقت بريال ونصـف الريال فقط ، ومن بعـد ســنار تأتى منطقة الخرطوم التى تميزت أرضها بسهولة المواصلات وبسـهولة الرى بمياه الأمطار ومياه النيل معا ، وكان فى الامكان زراعة ٢٠٠،٠٠٠ الف فدان بالقطن ، ومن بعدها تأتى منطقة فاشودة التى تتسم أرضها بالخصوبة ، ولكن على الرغم من هذا فانها لم تستغل بعد ، كما لم يرد فى التقرير ذكر لمساحتها . ربما لأنها كانت مستحدثة وهذا هو الأرجح . واما عن كردفان التى تمتد اراضيها على طول النيل الأبيض حتى جبال تقلى فهى بهذا اكبر من مديريتى الخرطوم وسنار معا ، وتتميز أرضها من جهة الشمال بأنها رملية ، لذلك يقوم السكان بزراعتها تبغا ، اما الجهة الجنوبية منها ، فهى متسعة ويمكن أن يزرع السكان منها ١٠٠ الف فدان من القطن ، كما يمكن تصدير انتاجها من القطن بسهولة وذلك بواسطة المراكب ، ومن بعدها تأتى

---

(١٦) دفتر ٣٩١٥ معية سنية ، وثيقة ٣ فى جماد اول سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(١٧) يبلغ عرض خور الجاش ما بين ١٠٠ أو ١٥٠ أو ٢٠٠ مترا ، ويبلغ عمقه متران ، وينبع هذا الخور من شمال الحبشة ، وتفيض مياهه ٣ شـــهور فى السنة دون انقطاع .

بربر التى تتميز بخصوبة التربة فهى تضم آلاف الأفدنة الصالحة للزراعة ، والتى تروى بالأمطار والسواقى من النيل وقد بلغ عدد السواقى بها حوالى ٣٠٠٠ ساقية وكان فى الامكان زراعة ١٠٠ ألف فدان من أرضها قطنا ، وبجوارها يوجد اقليم دنقلة الذى يضم مساحة من الأرض الخصبة التى تروى بمياه النيل بواسطة السواقى ، وكان فى الامكان زراعة ٦٠ الف فدان من أرضها بالقطن (١٨) وقد رسمت خريطة وضح عليها كافة الأراضى الصالحة لزراعة القطن فى السودان الشمالى (١٩) .

وكان من هذه الخطوات ايضا ان اسماعيل امر بأن يزرع القطن على الطريقة الحديثة التى تتمثل فى حرث الأرض بالمحاريث أولا ، ثم تترك ليتعرض باطنها لحرارة الشمس ، لكى تموت الحشرات الضارة بجذور النبات ، ثم بعد ذلك تخطط الارض وتزرع البذور فى نقر بين النقرة والأخرى خطوتين واشترط الا يزيد عدد البذور فى كل نقرة عن بذرتين فقط حتى اذا تلفت احداهما تظل الثانية ، وفى حالة انبات البذرتين معا ، تقلع احداهما وتترك الأخرى وكان الغرض من هذه العملية هو اتاحة الفرصة للشجيرة الباقية أن تتفرع الى عدة فروع ، واما فى حالة عدم انبات البذور ففى هذه الحالة يعاد زراعتها من جديد حتى لايترك مكانها بورا ، وبعد فترة من النمو يقوم الفلاحون بتنقية الأرض من الحشائش التى تضر بالنباتات ويستمرون فى العناية بالشجيرات حتى يكتمل نموها ويجنى المحصول ، وذلك باخراج القطن الشعر من اللوزات كاملات النمو ، ويوضع فى القفف مع مراعاة عدم خلطة بالأوراق الجافة حتى يظل ابيض خاليا من الشوائب ، ثم يوضع فى مكان نظيف ، بعيدا عن المياه والقرضة الأرضية الى ان ينقل الى الشون المخصصة لذلك تمهيدا لنقله الى مصر (٢٠) .

طلب اسماعيل من مدير كل مديرية أن يعد لكل قبيلة دفترا يوضح فيه كمية القطن التى توردها هذه القبيلة واسم شيخها واسم الشخص الذى ورد القطن واسم بدنته (قبيلته الصغيرة) وشيخها والكمية التى وردها

---

(١٨) محفظة ١٥٣ التقرير الخاص بزراعة القطن .
(١٩) أنظر الخريطة رقم (٢) الموجودة خلف ص ١٦٣ .
(٢٠) دفتر ٣٩١١ وثيقة ١٥٢ شعبان سنة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧١م .

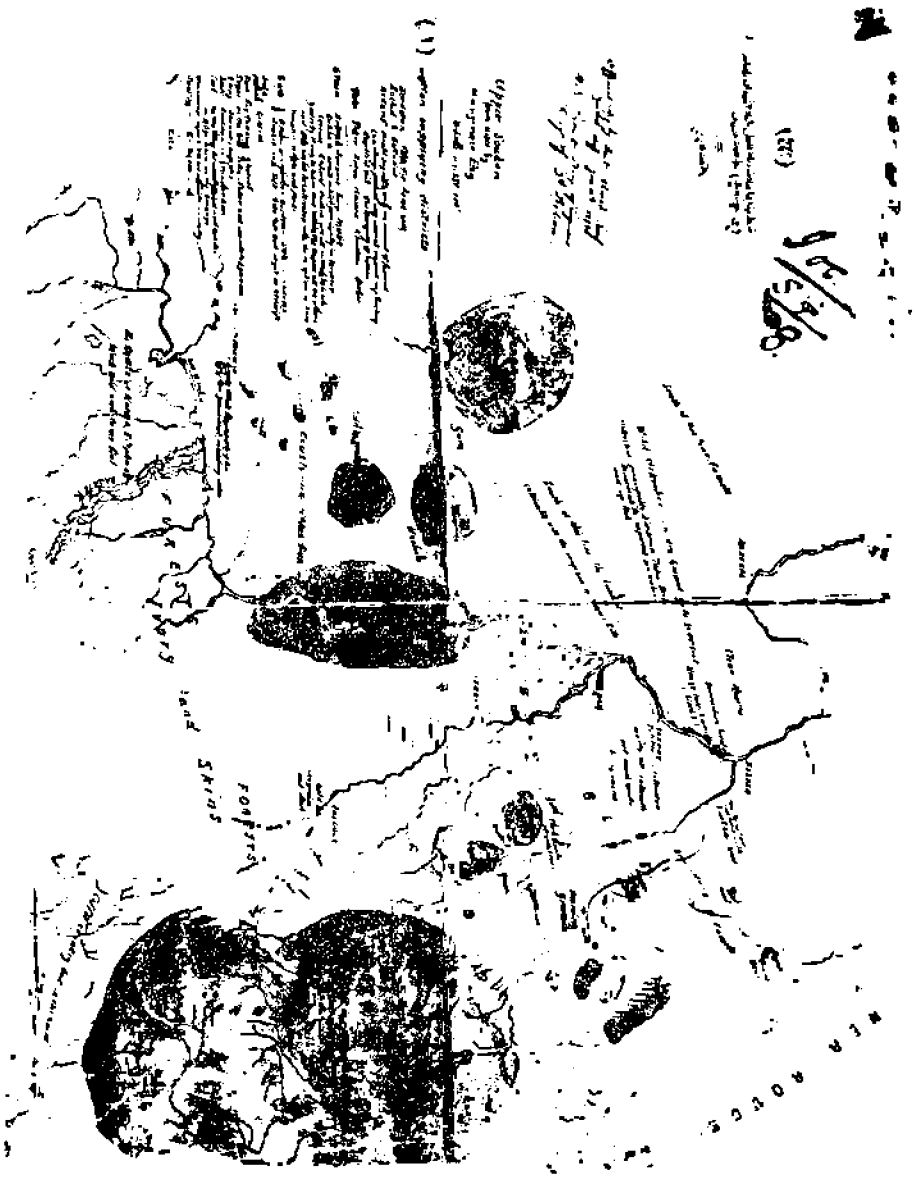

صورة الخريطة رقم (٢)

وتوضح الأراضى الصالحة لزراعة القطن فى السودان الشمالى

توضيح بيانات الخريطة رقم (٢)

« وهى خريطةمبينا فيها محلات زراعة القطن باعلا السودان

من ابتداء بربر ــ خرطة عمومية للسودان »

Official copy by Lient Ahmed Raif general staff. Jan. 11 de 1874.

H.G. Prout Maj. of Engineers
Chief of 3d Section.
Upper Sudan
from notes by

Munzinger Bey
Echelle 1 : 2.850.000
Cotton supplying districts
Kordofan 1.7 he for him use
Rashid and Gellabat.
Kedarif should be grown only on.

account of famine can always produce any amount required naploughing deep black doil. The Hungary of Africa, Taka, Tokar, Barca, Anseba, Khartoom, Berber.

Grain : Dorah jowarie larg millet.

Dokhon small millet princepally in Kordofan.

— Sesame. Kedarif, Rashid are all cultivable lands generally it may be taken that with in the tropics all the plains and hills are fit for cultivation with the exception of bare volcanic ridges and peaks.

— Gum. I. Arabic or Heshab in kordofan little at Kedarif.
II. Suakin and Talk-trees Talk and sayat in Kedarif.

— Soda.
— Potash. General.
— Bark for Tanning general.
— Sugar on the hill. Taka, Tokar and inundated grounds.
— Ebony. Sennar, Fazoglei.
— Iron. Kordofan in granular form.
— Coal. On the way between Gellabat and Gondar in Abyssinnia on the Gowango.
— Massawah. exports 200,000 colf hides anually.
— Suakin-c = Circa 100,000-d = dito.

وتاريخ الورود ويوضح فيه ايضا القبائل التى اجتهد ابناؤها فى زراعة القطن حتى يمكن مكلفاتهم ، ومعاقبة ابناء القبائل الذين تهاونوا فى زراعته (٢١) ويبدو ان العقاب الذى كان يقصده اسماعيل بالنسبة للقبائل التى تقصر فى زراعة القطن ، هو حرمانها من زراعة القطن بالاضافة الى شراء انتاجها من القطن بثمن بخس ثم حرمانها من خدمات الحكومة الخاصة بالنهوض بالزراعـــة .

ومن الاجراءات التى اتخذها اسماعيل أيضا توزيعه بذور تقاوى القطن على الفلاحين بالمجان ، وذلك بواقع كيلتين من البذرة لكل مزارع . مكان من المتبع ان يقوم مدير كل مديرية بتوزيع هذه البذور على المزارعين ، ففى عام ١٨٧١م وصل الى الخرطوم ٢٠٠ اردب من البذرة ، وتم توزيعها على جهات الخرطوم والبحر الأبيض وسنار وقد روعى ان ترسل هذه البذور قبل موسم الزراعة بوقت كاف (٢٢) كما أرسل فى نفس الوقت كمية من البذور الى التاكة بلغت ٣٠٠٠ أردب (٢٣)ولكنها لم تف بالغرض المطلوب لأن مساحةالأرض المراد زراعتها قطنا فى اقليم التاكه بلغت حوالى ٣٦٬٦٠٠ فدان (٢٤) ولم يقتصر توزيع البذور على هذه الجهات ، بل شمل جميع جهات السودان وذلك من أجل النهوض بزراعة القطن فى جميع انحاء البلاد .

ومن هذه الاجراءات ايضا أن اسماعيل خصص ساقية لكل ثلاثة أفدنة تزرع بالقطن بالاضافة الى ستة رؤوس من الماشية ، وستة رجال (٢٥) ولكن تلاحظ فيما بعد زيادة عدد الافدنة المخصصة لكل ساقية بمعدل خمسة

---

(٢١) دفتر صادر عموم سواحل البحر الأحمر رقم ٣٩٠٩ ص١٠٢ وثيقة ٧٨ فى ٢٠ جماد اول سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(٢٢) دفتر ١٤ عابدين وارد تلغراف ، وثيقة ٤٩٣ فى ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م

(٢٣) محفظة ٤٨ معية تركى ، وثيقة ١٠٢ فى ٢٧ صفر ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

(٢٤) دفتر ١٩٤٢ أوامر عربى ، وثيقة ٢٢١ فى ٥ صفر سنة ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م .

(٢٥) دفتر ١٨٤٩ معية سنية ، وثيقة ١٣ ص ٣٦ فى ١٦ ربيع اول سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

الفدنة ، فأصبحت جملة الأفدنة المقررة لكل ساقية ٨ أفدنة ، بدلا من ثلاثة أفدنة (٢٦) ، يبدو أن السبب فى زيادة عدد الأفدنة بالنسبة لكل ساقية، يرجع الى زيادة الأرض الصالحة لزراعة القطن ، أو الى قلة عدد السواقى ، ولكن من المرجح ان يكون السبب هو زيادة المساحة المراد زراعتها بالقطن .

وكان من هذه الخطوات قيام اسماعيل بحفر بعض الترع ، وانشاء بعض الخزانات ، الخاصة بخزن المياه حتى يمكن استغلالها فى رى الأراضى المزروعة بالقطن وكان من هذه الترع الترعة التى حفرت فى بربر لتوصيل مياه النيل الى الأراضى الزراعية (٢٧) . بالاضافة الى استخدام الماكينات فى رفع المياه من النيل الى هذه الأراضى (٢٨) .

وكان من الخزانات التى أمر اسماعيل بانشائها خزان سواكن الذى أنشىء بغرض حجز مياه الأمطار لكى يستخدمها السكان فى رى الأرض المزروعة بالقطن ، بالاضافة الى ذلك فان هذا الخزان سوف يزود الأهالى وجنود الجهادية الموجودين بسواكن بما يلزمهم من المياه العذبة ، فكان من المعتاد أن يرحل السكان فى فصل الصيف الى سنكات لكى يحصلوا على ما يلزمهم من المياه العذبة ، وكان ذلك يضر بهم ، لأنهم كانوا يتوقفون تماما عن ممارسة تجارتهم فى هذه الفترة من السنة ولكن بعد أن تم بناء هذا الخزان ، عادت لهم الحياة الطبيعية ، وقد وفر هذا الخزان ، الذى أنشىء على خور التمانيب الذى يبعد عن سواكن بحوالى أربع ساعات من المسير حوالى ٢٥٠ الف متر مكعب من المياه (٢٩) . وقد استخدمت أحدى الماكينات فى ضخ المياه من هذا الخزان الى المزارع (٣٠) .

---

(٢٦) دفتر ١٨٦٤ معية عربى ، وثيقة ٢٧ فى ١٧ شوال سنة ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م .

(٢٧) دفتر ١٨٣٩ أوامر كريمة عربى وثيقة ٨ ص٥٤ فى غرة محرم سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(٢٨) Dr. Mohamed Sabry : Le Soudan Egyptien 1821-1898. P. 11.

(٢٩) محفظة ١٩ بحر برا ــ وثيقة ٢٢١ فى ٩ شعبان سنة ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م .

(٣٠) دفتر ٢٣ عابدين ، وارد تلغراف ، وثيقة ٩ فى ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

ومن الاجراءات التى اتخذها اسماعيل انشاؤه لعدد من المحالج الخاصة بحلج القطن ، فكان قد أرسل عددا من البنائين المصريين لكى يقوموا ببناء أماكن لهذه المحالج ، وكان العامل منهم يتقاضى أجرا يوميا قدره ٢٢ قرشا (٣١) فكان اسماعيل قد انشأ وابور للحلج فى كل من دنقلة وبربر (٣٢) والناكه وسواكن وعين لكل محلج من هذه المحالج اسطى من أبناء العرب ، وذلك لتشغيل هذا الوابور ، فى مقابل حصوله على مرتب شهرى قدره ٥٠٠ قرشـــــا (٣٣) .

ومن هذه الاجراءات ايضا ، أن خصص اسماعيل عددا من الجنود للعمل فى الزراعة بوجه عام ، وزراعة القطن بوجه خاص . وكان ذلك بناء على رغبتهم الخاصة وقد عمل هؤلاء الجنود فى أقليم توكر الذى يتميز بخصوبة التربة ووفرة المياه ويمكن تعليل عمل العساكر بالزراعة الى أنهم ، اصبحوا غير قادرين على ممارسة العمل العسكرى ، وربما يرجع ذلك الى عدم احتياج الحكمدارية الى خدماتهم العسكرية ، وخاصة بعد أن انتهت الحروب الحبشية المصرية وكان هؤلاء الجنود قد طلبوا من حكمدار السودان أن يوافق لهم على ارسال عائلاتهم الى أماكن تواجدهم ، على شرط أن يتحملوا مصاريف نقلهم ، كما اشترط الخديو اسماعيل أيضا الا تجبر هذه العائلات على الرحيل الى السودان ، بل يكون ذلك بمحض ارادتهم واختيارهم (٣٤) .

من المرجح أن عائلات هؤلاء الجنود لم تستقر فى السودان طويلا ، وذلك بسبب قيام الثورة المهدية ، كما لم يعرف على وجه التحديد متى عادت هذه العائلات الى مصر ، فمن المرجح أيضا أن تكون هذه العائلات قد عادت الى مصر ، نظرا لقرار اخلاء السودان الذى صدر بعد قيام الثورة المهدية .

---

(٣١) دفتر ٣٩١٥ وثيقة ٢٤ بدون تاريخ .

(٣٢) دفتر ١٨٥٢ معية عربى وثيقة ٤٤ص ٧٥ فى ٥ الحجة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(٣٣) دفتر ٢٣ عابدين وثيقة ٩ فى ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٠هـ الموافق١٨٧٣م

(٣٤) دفتر ٢١ معية عربى ، وثيقة ١١ فى ٦ شوال سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

وكان اسماعيل قد زود هؤلاء الجنود الذين رغبوا فى العمل الزراعى ، بكل ما يلزمهم من بذور وماشية ، واشترط عليهم أن يقوموا بتسديد قيمة أثمانها من حصيلة انتاجهم الزراعى (٣٥) .

وكان من الاجراءات التى اتخذها اسماعيل ، قراره بانشاء ترسانة بحرية ببلدة قوز رجب ، وذلك لصناعة المراكب اللازمة لنقل القطن من السودان الى مصر (٣٦) ويمكن تعليل اختيار قوز رجب كمكان للترسانة الى سببين أولهما وفرة الأخشاب الموجودة فيها والتى يمكن الحصول عليها بسهولة ، وثانيهما أن بلدة قوز رجب قريبة من النيل النوبى الذى يمثل الشريان الرئيسى لمواصلات السودان النهرية مع مصر .

وكان من نتيجة هذه الاجراءات التى اتخذها اسماعيل أن ازدهرت زراعة القطن فى السودان بالاضافة الى ارتفاع سعره ، فقد تراوح سعر القنطار منه فيما بين ٤٠ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٠ ، قرشا للقنطار ، الذى يزن ١٠٠ رطل ، ومع ذلك تظلم الاهالى من انخفاض سعره (٣٧) مما أضطر الخديو أن يأمر برفع سعر القنطار بنحو عشرة قروش ، كى يرغب المزارعين فى الاستمرار فى زراعته ، بالاضافة الى زيادة محصولهم (٣٨) وبالفعل زاد الانتاج وخاصة فى المديريات الجنوبية مثل النيل الأبيض وفاشودة ولكن فى نفس الوقت انخفض سعر القنطار الى ٤٥ قرشا (٣٩) ويمكن ارجاع انخفاض سعر القطن الى رداءة النوع المعروض للبيع وربما كان يرجع السبب فى انخفاض السعر الى زيادة الانتاج لانه فيما بعد ارتفع سعر القنطار الى ٧٥

---

(٣٥) دفتر ١٩٣٩ وثيقة ٥ فى ٥ محرم ١٢٨٩هـ الموافق ١٨٧٢م .

(٣٦) دفتر ٣٩١١ وثيقة ١٢ فى ١٥ شعبان سنة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧١م .

(٣٧) دفتر ١٨٦٠ معية عربى ، وثيقة ٥٢ فى ١٣ محرم سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

(٣٨) دفتر ١٨٧٥ معية عربى ، وثيقة ١ ص٤٨ فى ٥ القعدة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

(٣٩) دفتر ١٨٦٤ معية عربى ، وثيقة ٥٣ ص١١٠ فى ١ جماد أول سنة ١٢٩٠ الموافق ١٨٧٣م .

قرشا وكانت تكاليف القنطار بعد حلجه ونقله الى مصر تبلغ حوالى ١٩٨ قرشـــا (٤٠) .

ومن الواضح أن السودانيين استفادوا من زراعة القطن فى عدة نواح ، منها أنهم زرعوا مساحات شاسعة من أرضهم التى كانت غير مستغلة فى الماضى والتى ظلت بورا ، ومنها أيضا أن بلادهم أصبحت تعج بالعمران وذلك بانشاء المحالج والشون والترسانات فى أماكن عديدة من السودان ، زيادة على ذلك فان هذه الزراعة ادت الى زيادة دخل السكان ، فتمكنوا من تسديد ما عليهم من ديون متأخرة ، كما أدت الى انشاء كثير من القرى فى أماكن زراعة القطن ، مثل اقليم توكر الذى استوطنه المصريون .

لم تقتصر درجة الاستفادة من زراعة القطن فى السودان على — السودانيين وحدهم فحسب ، بل ايضا شاركهم المصريون هذه الاستفادة ، فكان القطن السودانى يصدر الى مصر وهناك يأخذ منه ما يكفى حاجة البلاد وما يتبقى يصـــدر للخارج .

الى جانب اهتمام اسماعيل بزراعة القطن فى السودان ، اهتم ايضا بزراعة بعض الغلات الزراعية الأخرى ، كالقصب والذرة والبن والدخان واشجار الفاكهة والخضر وكان القصب من الغلات الهامة ، التى اهتم اسماعيل بزراعتها فى السودان ، وذلك لتزويد السكان بما يلزمهم من السكر والعسل وكان قد قرر أن يزرع منه حوالى ١٠٠ مائة فدان كتجربة اولى ، وفى نفس الوقت طلب من الحكمدار أن يرسل عددا من أبناء السودان الى مصر للتدريب على مهنة صناعة السكر فى فرشوط ، ثم يعودون بعد ذلك الى السودان لممارسة هذه الصناعة فى بلادهم (٤١) . ولكنى مع ذلك لم أعثر على اية وثائق توضح لى مدى نجاح هذه الصناعة فى السودان ، وعلى أية حال فانه رغم عدم نجاح هذه الصناعة فانها زودت على الأقل السودانيين بالفكرة الخاصة بصناعة الســـكر .

---

(٤٠) دفتر ٣١٠ عابدين ، وارد تلغرافة — وثيقة ٣٠٢ فى ٢ جماد اول ســـنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

(٤١) دفتر ١٨٥٩ معية عربى ، وثيقة ٩ غرة شوال ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

ومن بعد القصب اهتم اسماعيل بالذرة والدخن ، ففى عام ١٨٧٢ ، طلب الخديو من مأمور سنكات أن يعمل على زيادة المساحة المزروعة ذرة ودخنا، ولكن مأمور سنكات أفاد بأن السكان ليس لديهم الخبرة الكافية بزراعة هذين الصنفين مما اضطر الخديو أن يرسل خبيرين من مصر هما الشيخ محمد على والشيخ محمد الجعلى وذلك للمرور على تلك الجهة ، وغيرها من الجهات السودانية الأخرى لتفهيم السكان طريقة زراعة الغلات التى لم يعرفوازراعتها من قبل ، بالاضافة الى فحص نوعية التربة ، فالأرض التى تصلح تربتها لزراعة الذرة تزرع ذرة، والأرض التى تصلح تربتها لزراعة القطن تزرع قطنا (٤٢) . لم يكتف اسماعيل بهذا الجهد بل أمر بتزويد المواطنين السودانيين بالنقاوى اللازمة من بذور الذرة والدخن ، وقد وزعت هذه البذور على اقليم اركويت والتاكه (٤٣) وهرر وكردفان وغيرها من البلاد السودانية الأخرى (٤٤) وبلغ الاهتمام بزراعة الذرة أن غردون باشا طلب من اسماعيل أن يسمح له بعدم مهاجمة المتمردين ، أثناء موسم الخريف ، الذى تزرع فيه الذرة ، حتى لايتوقف السكان عن زراعتها ولكن بعد الانتهاء من عمليات الزراعة ، يمكن لغردون ان يطارد المتمردين ويقضى عليهم (٤٥) والى جانب الذرة زرع القمح والشعير والبرسيم (٤٦) .

ومن الغلات الزراعية الأخرى التى اهتم اسماعيل بها ، البن الذى كان يزرع فى هرر والذى كانت زراعته تحتاج الى عناية خاصة ، فكانت طريقة

---

(٤٢) دفتر ٣٩١٥ معية عربى وثيقة ٣ فى ٢٩ محرم سنة ١٢٨٩ الموافق ١٨٧٢م .

(٤٣) محفظة ١٩ بحربرا ، وثيقة ١٢٢ فى ١٠ شعبان ١٢٨٦ الموافق ١٨٦٩م .

(٤٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٢٤ معية عربى ، وثيقة ١٢ صفحة ١٧ فى ١٧ الحجة سنة ١٢٨٦ الموافق ١٨٦٩م .

(٤٥) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٤٦ عابدين ، وثيقة ٢٦٠ ص٦٧ فى ٢٥ ربيع ثانى سنة ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م .

(٤٦) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٣٢ عابدين ــ وثيقة ٢١٤ ص٤٥ فى ٢ ربيع اول سنة ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م .

زراعته تتلخص فى حفر الأرض الى حفر صغيرة توضع فى كل منها بذرتان من بذوره ثم تغطى بالتراب ، ومن فوق التراب تغطى الحفر بالقش ، وتترك لمدة ٤٠ يوما ، وبعد أن يظهر النبات على سطح الأرض ، يقوم المزارعون بعمل تعريشه من الأخشاب والقش ، وبعد ذلك يترك لمدة اثنى عشر شهرا ، مع المداومة على ريه بالماء كل سبعة أيام ، وبعد هذه المدة تنقل الشجيرات الى مكان جديد ، وكان من المتبع أن يوضع فى كل حفرة شجرتين ، حتى اذا ماتت احداهما ظلت الأخرى وكان السكان يداومون على ريه بمعدل مرة كل اسبوع وذلك لمدة ٨ شهور ، بعدها يروى مرة أو مرتين فى السنة ، وبعد سنة من الزراعة ، تظهر ثماره ، فيقوم السكان بجنيها ، قبل أن يتم نضجها حتى لاتضعف اشجارها ، ويستمرون فى مواصلة هذه العملية لمدة خمس سنوات ، بعدها تصبح ثماره جيدة ، هذا مع المداومة على ريه مرة أو مرتين أو ثلاثة مرات فى السنة وكانت شجرة البن تثمر مرتين فى السنة وتعطى فى الجنية الواحدة حوالى سبعة أرطال و ٢٢٤ درهما هرريا (٤٧) .

لم يقتصر نشاط اسماعيل على الغلات الزراعية فحسب بل تطرق اهتمامه الى زراعة اشجار الفاكهة . ففى عام ١٨٦٦م طلب اسماعيل من محافظ مصوع أن يهتم بزراعة اشجار الفاكهة وخاصة من الأنواع الغير متوفرة فى محافظته (٤٨) وذلك لتزويد البلاد بما تحتاجه من الفاكهة وعلى هذا الأساس بدا المحافظ فى تنفيذ ما أوكل اليه وقد طلب من مصر أن تزوده بماكينة مياه لاستخدامها فى رى حديقة الفاكهة التى زرعت فى جهة أم كلوا ، التى تبعد عن مصوع ٣ ميل فقط (٤٩) بعد ذلك زرعت اشجار الليمون والبرتقال فى سواكن ولكن لم تنجح زراعتها ، وذلك لشدة الحرارة ، فأمر اسماعيل

---

(٤٧) جريدة اركان حرب الجيش المصرى — العدد ٥ الجزء ٥ — المجلد ١ — فى عام ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م — ص ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ .

(٤٨) محافظ أبحاث السودان — دفتر ٥٥٨ وثيقة ٣ ص٣ فى ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ الموافق ١٨٦٤م .

(٤٩) دفتر ١٨٤٧ معية عربى — وثيقة ٦ ص ٤٠ فى ١٢ صفر سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

ينقلها الى اركويت حيث زرعت هناك وذلك لملاءمة مناخها عن سواكن (٥٠) . وقد امتدت زراعتها الى بربرة بواسطة جنود الجهادية كما امتدت الى فاشودة (٥١) وزرعت أيضا اشجار الليمون والبرتقال والتين فى كل من دنقلة وبربر وكان الخديو اسماعيل قد طلب من حكمدار السودان أن يعفى أشجار الفاكهة من الضرائب (٥٢) حتى يتشجع الناس على الاكثار من زراعتها وفى هذا الصدد يخاطب اسماعيل حكمدار السودان بقوله :

« وانى بموجب امرى هذا اطلب منك عدم فرض أموال أميرية على الأراضى المنزرعة بها أشجار ، ولا على الأشجار المنغرسة أو التى ستغرس من الان فصاعدا مثل أشجار الليمون والبرتقال والتين وأشجار الفاكهة فى السـودان » (٥٣) .

ولكى يشجع اسماعيل السكان على ممارسة الزراعة عامة واشجار الفاكهة خاصة أمر بتخفيض الضرائب على الأطيان الزراعية ، وذلك بقوله :

« انه من الاقتضى اعتبار مالية الفدان عشرين قرشا فقط ، تطبيقا لامر المرحوم محمد سعيد باشا ، وصرف النظر عن الزيادات التى تلت بعدها باذونات الحكمدارية ، حتى نحصل بذلك على زيادة الرغبة والاقدام من الاهالى على زراعة مايروى من تلك الأطيان ، وانتفاعهم بمحصولاتها ، وانما مع هذا يلزم زيادة الاعتناء والالتفات منكم ومن الحكام الذين تحت ادارتكم للتحرى السنوى عن الأطيان التى يصير ريها من هذه الأنواع وحث

---

(٥٠) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٣٩١١ وثيقة ١٧٠ فى ٨ شعبان ـــ سنة ١٢٨٧هـ الموافق ١٨٧١م .

(٥١) محافظ ابحاث السودان ـــ دفتر ٥ معية سنية ، وثيقة ٤ فى غرة رمضان ١٢٩١ الموافق ١٨٧٤م .

(٥٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، المصدر السابق ص ٣٥٨ .

(٥٣) نفس المصدر : ص ٣٥٨ .

الأهالى على زراعتها اولا بأول وعدم ترك شيء باير منها بدون زراعة ، مع حصر مقاديرها ، وربط ماليتها سنويا بحسبما يتحقق من ريها ، وزراعتها ، فأصدرنا أمرنا هذا لكم للمعلومية واجرى العمل على مقتضاه » (٥٤) .

واضح من هذا الخطاب مدى اهتمام اسماعيل باشا بالزراعة كوسيلة فعالة من وسائل التنمية الاقتصادية .

وأما عن الخضر فقد زرعت فى بربرة وغيرها من البلاد السودانية الأخرى ، فقد قام الجنود المصريون بزراعة مساحة كبيرة بالخضر أمام معسكرهم فى بربرة وقد بلغ طولها حوالى ١٥٠٠ مترا (٥٥) وكان من بين أنواع الخضروات التى تمت زراعتها هناك البامية والرجلة والفجل ومن الفاكهة الشمام (٥٦) .

ومن الملاحظ أن الخضر لم تحظ باهتمام اسماعيل مثلما حظيت به بقية الغلات الأخرى ويمكن تعليل ذلك بأن زراعة الخضر نمت على نطاق ضيق . والسبب فى ذلك يرجع الى أن زراعتها كانت قاصرة على تزويد الجند بما يحتاجون اليه من خضر دون غيرهم بالاضافة الى ما كان يرد من مصر من أصناف الخضر الغير متوفرة فى البلدان الأفريقية . ويبدو أيضا أن السكان فى السودان خاصة وافريقيا عامة ، كانوا لايهتمون بزراعة الخضر ، وربما يرجع السبب فى ذلك الى جهلهم بزراعتها .

٤ — نظام ملكية الأراضى فى السودان :

كانت الأراضى فى السودان ، تملك للاشخاص بعدة طرق منها طريقة وضع اليد ، التى كانت تتم عندما يقوم الملك باعطاء أية جزيرة تظهر فى النيل

---

(٥٤) محمد فؤاد شكرى : نفس المصدر ص ٣٧٢ .

(٥٥) دفتر ٣٧١٥ معيةعربى ، وثيقة ٥٦ ص ٩٦ ، ٩٧ فى ١٤ القعدة سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٥٦) دفتر ٣٧١٦ ، وثيقة ٤٩ فى ١٧ ربيع ثانى سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

لأى شخص يختاره من بين رعاياه ، سواء كان من رجال العلم أو من غيرهم ، وكان المالك لهذه الجزيرة أو الأرض يحصل من الملك على عقد مختوم بختامة ، يخول له ملكيتها ، وكان من المتبع كذلك أن تنتقل ملكيتها من وريث لآخر طبقا لمـــا جاء بهذا العقد .

وكان منها الرغبة فى استصلاح الأراضى البور ، وذلك بغرض زراعتها والانتفاع بها ، وكان من المتبع بالنسبة لامتلاك هذا النوع من الأراضى ، أن يتوم الراغب فى اصلاحها ، بتقديم طلب الى السلطة ، يحصل بمقتضاه على ملكية هذه الأراضى ، وذلك بوضع اليد ، ويصبح المستصلح منذ هذه اللحظة صاحب الحق فى بيعها أو توريثها أو تأجيرها بموجب عقد يحرره بمعرفة أحد الفقهاء الموجودين بجهته .

ومنها كذلك طريقة الايجار التى كانت تحدث عندما يكون المالك ليس له مقدرة على زراعة أرضه بسبب اتساعها ففى هذه الحالة كان عليه أن يقوم بتأجيرها لمن يرغب فى زراعتها ، بحيث يحصل صاحب الأرض على الثلث ويحصل المستأجر على الثلثين ، وفى بعض الأحيان كانت الزراعة فى هذا النوع من الأراضى تتم بالمرابعة ، بمعنى أن يحصل صاحب الأرض على الربع ويحصل المستأجر على ثلاثة الأرباع الباقية . ومنها طريقة التوريث التى كانت تحدث عندما يموت أى مالك لأى مساحة من الأرض ، ففى حالة عدم وجود وريث له ، كان على أحد الأهالى أن يقوم بوضع يده على هذه الأرض ، ثم يقوم بعد ذلك بزراعتها ، وتدفع الضريبة المقررة عليها للمرى ، وعندما يهمل هذا المالك الجديد فى زراعتها ففى هذه الحالة تقوم الحكمدارية بأخذها منه واعطائها لغيره من المزارعين ليقوم بزراعتها .

وكانت الحكمدارية تقوم بفرض ضرائب على هذه الأطيان ، ولكن لقلة انتاجها ، عجز أصحابها عن تسديد قيمة الضرائب المقررة عليها ، فاضطرهم ذلك بالتالى الى تركها والهروب الى أماكن بعيدة كى يمارسون الزراعة فى اراض غير معروفة المساحة ، حتى لايدفعوا عنها الضرائب ، ولكن لما علم بذلك حكمدار السودان ، [موسى باشا] اضطر الى أن يبطل هذه

الضريبة المقررة على الأراضى ، وفرض غيرها على الأشخاص انفسهم ؛ ومن هذا التاريخ صار المزارعون ، يزرعون المساحات لتى يرغبون فى زراعتها (٥٧)، هذا باختصار عن الزراعة والفلات الزراعية ، ومدى معرفة ماقامت به مصر من اجراءات فى سبيل النهوض بهما .

---

(٥٧) دفتر ٢٨٣ وثيقة ٣ ص ١٣٦ فى ٩ ربيع ثانى سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م .

الفصل التاسع

السكك الحديدية والمواصلات فى السودان

استمرت قوافل التجارة السودانية القادمة الى مصر ، تستخدم الطرق البرية والمائية ، بعد الفتح المصرى للسودان ، وحتى عصر اسماعيل ، والدليل على ذلك ما جاء بهذه الاحصائية ، التى توضح لنا القيمة النقدية لهذه التجارة ، فى الفترة ما بين ١٨٧٣ ، ١٨٧٤م التى كانت تقدر بنحو ١٫٥٥٤٫٦٠٠ جنيها و ٣٧ بارة وكان هذا المبلغ عبارة عن قيمة اثمان لبعض السلع التجارية الممثلة فى ريش وبيض النعام ، والصمغ والعاج والتمر حنا ، والسنامكى والشمع والجلود والكرابيج والبن والفلفل الأحمر والفرو ، وقرون الخرتيت والأعشـــاب الطبية .

ولكن على الرغم من تعدد أصناف هذه السلع الا أنها كانت لاتفى — باحتياجات السودان النقدية ، والدليل على ذلك ، ما جاء فى ميزانية عام ١٨٧٨ التى كانت على النحو التالى : —

٥٧٩٫٠٠٠ الف من الجنيهات المصرية قيمة الدخل العام للسودان .
٦٥١٫٠٠٠ الف من الجنيهات المصرية قيمة الانفاق السنوى .
٣٢٧٫٠٠٠ الف من الجنيهات المصرية قيمة الدين .
٧٢٫٠٠٠ الف من الجنيهات المصرية قيمة العجز فى الميزانية السودانية (١)

يفهم من هذه الميزانية أن انتاج السودان ، كان لايفى باحتياجاته ، وذلك اما لعدم استغلال موارده الاقتصادية ، استغلالا صحيحا ، وهذا

---

(١) Report on the Egyptian Province of the Sudan op. cit. P. 150.

من المرجح ، واما لقلة هذه الموارد ، وهذا من غير المؤكد لانه من المعروف لدينا أن السودان كان ولايزال غنيا بموارده الاقتصادية ويبدو أن اسماعيل قد أدرك هذه الحقيقة ، عندما بدأ فى مد سكة حديد السودان ، وذلك لاستغلال موارده الاقتصادية بطريقة افضل بحيث تعود على الشعبين الشقيقين بالنفع والرخاء ، بالاضافة الى استخدامه لهذه السكة الحديدية ، فى ربط البلدين ببعضهما لتسهيل حركة الاتصال بينهما .

١ ــ اهمية مد السكك الحديدية الى السودان :

ترجع أهمية انشاء السكك الحديدية السودانية ، الى نقل المواد الاقتصادية من افريقيا عامة والسودان خاصة الى مصر ومنها الى دول العالم الخارجى . وقد تمثلت هذه الموارد فى العاج وريش النعام ، والصمغ والجلود والعطارة ، وقد قدرت قيمة الصادرات السودانية فى السنة بنحو ١٠٫٠٠٠ تونولاته ، وبلغت قيمة التونولاته الواحدة ٥٠ ريالا ، هذا بخلاف بعض الغلات الأخرى ، والتى لم يتم تصديرها كالقطن والقمح والبلح والفاكهة ، ومن الواضح أن السبب فى عدم تصدير هذه الغلات الى الخارج ، يرجع الى عدم ملائمة وسائل النقل المستخدمة فى ذلك الوقت ، فلو توفرت وسائل النقل السريعة والكبيرة الحجم ، كالسكك الحديدية مثلا ، لأمكن تصدير كميات ضخمة من هذه الغلات بحيث تبلغ فى جملتها حوالى ١٥٠٫٠٠٠ الف تونولاته فى السنة ، بدلا من تصدير ١٠٫٠٠٠ عشرة آلاف تونولاته ، وتقدر قيمة نقل هذه الكمية بنحو ٣٠٠٫٠٠٠ الف من الجنيهات المصرية ، اى بواقع ٢ جنيه للتونولاته الواحدة ، ولو خصم من أجر النقل ٤٠٪ اى ما يعادل ١٢٠٫٠٠٠ الف من الجنيهات المصرية كمصاريف للنقل ، لتبقى ١٨٠٫٠٠٠ الف جنيه مصرى هى عبارة عن صافى الربح (٢) ، وكان يقابل هذه الصادرات التجارية ، واردات تجارية أخرى تمثلت فى الاقمشة بكافة انواعها ، والمشروبات الروحية التى كانت تستورد من أوربا والهند ومن بعض بلدان العالم الاخرى ، وقد قدرت جملة هذه الواردات بنحو ٤٠٠٠ تونولاته ، وبلغت جملة مصاريف نقلها

---

(٢) محافظ مجلس الوزراء (سودان) محفظة رقم ١٥ وثيقة بدون تاريخ

١٥٠ر٠٠٠ (٣) . فانشاء السكك الحديد السودانية سوف يساهم بقسط كبير فى نقل هذه الواردات ، مما يسهل بالتالى حركة الصادر والوارد .

ومن فوائد السكك الحديد ايضا انها ستكمل الاتصال مع مصر وملحقاتها ومع نصف الكرة الجنوبى ، والهند وبلاد الشرق والسواحل الغربية للبحر الأحمر والمحيط الهندى ، اى انها ستؤدى الى اختصار الطريق الى بلاد الهند والصين واليابان واستراليا ، كما انها ستجعل مدينة الاسكندرية على اتصال مباشر بالبحر الاحمر دون انقطاع ، مما يؤدى بالتالى الى زيادة عدد السياح الذين يرغبون فى زيارة هذهالبلاد زيادة على هذا كله فانها ستساعد على انتشار الأمن فى ربوع البلاد السودانية ، وذلك بعاملين اولهما ، زيادة العمران الذى سيوجد ببناء المدن الحديثة والمحطات التى تنشأ على طول الخطوط الحديدية ، وثانيهما السرعة فى نقل الجنود للقضاء على اى تمرد أو عصيان هناك وفوق كل هذا ، فانها ستعمل على ربط شمال السودان بجنوبه، ويؤدى ذلك بالتالى الى المساعدة فى انتقال السكان الجنوبيين الى الشمال والعكس ، كما يؤدى ايضا الى تنشيط حركة التجارة بين الاقليمين والأقاليم الأخرى (٤) .

٢ ــ تطور انشاء السكك الحديدية السودانية :

ترجع فكرة انشاء السكك الحديد السودانية الى عصر محمد على ، وعلى وجه التحديد الى عام ١٨٣٧م . ففى هذا العام ، فكر محمد على فى استخدام السكك الحديدية فى نقل المعادن الخام ، التى يتم الحصول عليها من اقليم كردفان ، وبعض المناطق الاخرى الى أماكن تجمعها التى ستنشأ بجوار النيل الأبيض ، ومن اماكن التجمع هذه ، ينقل الحديد الخام بواسطة وسائل النقل المستخدمة من قبل الى مصر ، ولكى يقوم محمد على بتنفيذ هذا المشروع طلب من مستشاره أدلف لينان Adolphe Linant

---

(٣) نفس المحفظة .

(٤) تقرير فولر : المصدر السابق .

أن يقوم بعمل الدراسات اللازمة لهذا المشروع ، وذلك لمعرفة مدى صلاحيته من عدمه . وبعد أن أجريت هذه الدراسة تقرر على ضوئها امكانية انشاء ثلاث خطوط حديدية ، يربط احداها بين وادى النيل والبحر الأبيض ، ويربط الثانى بين سواكن على البحر الأحمر وبربر على النيل النوبى ، ويربط الثالث بين سواكن ايضا وبين شندى على النيل ، ولكن على الرغم من اجراء هذه الدراسة الا ان هذه الخطوط لم تخرج الى حيز التنفيذ فى عصر محمد على (٥) .

ولما تولى محمد سعيد باشا حكم مصر ، فكر ايضا فى مد سكة حديد الى السودان ، فاوفد المهندس منجل بك Mongel Bey الى هناك لدراسة الوسائل الفعالة التى يمكن بها التغلب على عقبات الملاحة فى النيل النوبى ، وحل مشكلة النقل فى السودان بواسطة السكة الحديد وذلك لزيادة الروابط بين البلدين (مصر والسودان) (٦) .

وبعد دراسته لهذا المشروع قرر عدم امكانية تنفيذه وذلك لضخامة تكاليفه (٧) وفى نفس الوقت كان انتونى رولييه Antony Brun Rollet يدعو الى تنشيط حركة التجارة السودانية ، وذلك باستخدام السكك الحديدية ، ويدلل على ذلك بقوله :

« ان المسافة بين البلدين طويلة ولايمكن قطعها بسهولة فكان المسافرون يقطعون المسافة بين اسوان وسنار فى ستة أشهر بينما لو استخدموا السكة الحديد لأمكن قطعها بسهولة ، وفى وقت قصير جدا ، لايتجاوز الساعات . وأن انشاءها سوف يعود بالخير والنفع على شعوب المنطقة » . ولكن على الرغم من هذه الدعوة الا أن محمد سعيد باشا لم يهتم بها ، واستمر الوضع على ما هو عليه الى أن جاء الخديو اسماعيل ، الذى بادر بانشاء

---

(٥) Hill. R. ; Sudan Transport : op. cit. pp. 6,8.

(٦) د. صلاح الدين الشامى : المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان ص٩ .

(٧) Report on the Egyptian provinces. op. cit. P. 11.

قومبانية (٨) ، كانت مهمتها مد السكك الحديد الى السودان ، وذلك لتحسين نقل الصادرات السودانية الى مصر ومنها الى دول العالم الخارجى (٩) .

فبمجرد أن انتهى الخديو اسماعيل من انشاء هذه القومبانية التى ـــ ستتولى مد السكة الحديد السودانية ، طلب من السلطان العثمانى أن ـــ يتنازل له عن مينائى سواكن ومصوع ، كى يربط مدن وموانى البحر الأحمر بمدن وسط السودان ، ولكن بمجرد أن علم والى جده بمطلب الخديو ، كتب الى السلطان العثمانى يخبره بعدم الموافقة على مطلب الخديو ، حتى لاتتعرض خزانة الدولة العثمانية الى نقص فى مواردها المالية بسبب هذا

---

(٨) بدأت هذه القومبانية فى ممارسة نشاطها برأس مال قدره ٥ر٠٠٠ر٠٠٥ر٢ جنيه مصرى ، فكانت قد حصلت على ثلثى هذا المبلغ من البيوت المالية الموجودة بالأسكندرية ، وأوربا ، وحصلت على الباقى من مصر وقسم هذا المبلغ على النحو التالى : ٠٠٠ر٠٠٥ر١ جنيه قيمة سندات بفائدة قدرها ٧٪ ، وكان قد اتفق أن يستهلك من قيمه هذه الفائدة نسبة قدرها ٢٪ ، وما بقى من راس المال وقدره ، ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ر١ جنيه ، فهو عبارة عن قيمة سندات عادية ساهمت الحكومة المصرية بنصف قيمتها ، والبالغ قدرها ٠٠٠ر٠٠٥جنيهمصرى وقد اتفق على أن يكون للحكومة المصرية الحق فى تعيين ٣ مديرين من جملة المديرين المخصصين لادارة هذه القومبانية ، والبالغ عددهم ستة أفراد وتقرر أن يتقاضى كل منهم مرتب شهرى قدره ، ٠٠٥جنيه مصرى ، وقد اشترط أن تستهلك هذه السندات فى مدة اثنتى عشرة سنة ، وأن تحصل مصر علىربحقدره ١٠٪ ، وأن يكون لها الحق فى شراء أسهم القومبانية بقيمة ثمنها الأصلى ولكن على الرغم من انشاء هذه القومبانية الا انها باءت بالفشل ، حيث صفيت أموالها عام ١٨٦٨م ولم يشاء القدر لها ، أن تؤدى مهمتها بالنجاح . أنظر كتاب ريتشارد هيل « النقل فى السودان » ص٩ وأنظر المحفظةرقم١٥من محافظ مجلس الوزراء (سودان) .

(٩) Hill, Richard : Sudan transport. op. cit. P. 8.

التنازل ويعلل والى جده أسباب معارضته الى أنه فى حالة تنازل السلطان العثمانى عن هذين الميناءين الى مصر ، فان ميناء جده ، سوف يحرم من مجىء عدد كبير من السفن المحملة بالبضائع لأنها ستتحول بالتالى الى ميناءى سواكن ومصوع ، وهناك تفرغ حمولتها ، ويتم نقلها بعد ذلك الى مصر بواسطة السكة الحديد ، وازاء هذا الموقف رد الخديو على السلطان العثمانى بقوله :

« ان انشاء السكة الحديد بين مصر والسودان ، ليست من الأمور السهلة ، ولايمكن البت فيها فى سنة أو سنتين ، بالاضافة الى أن مال الشركة العزيزية ، لايكفى لمد هذه السكة ، ولكن فى امكانه أن يمد السكة الحديد فقط بين مصر والسودان مع النيل زيادة على ذلك فان مد هذه السكة يحتاج الى مدة طويلة تتراوح فيما بين ٣٠ ، ٤٠ سنة ، وان البضائع التى ترد الى جده من الهند والعراق واليمن تاتى اليها مباشرة ، وكذلك البضائع التى تاتى الى مصر ، تاتى الى السويس مباشرة ، فالسفن ليست فى حاجة الى تفريغ حمولتها فى سواكن أو مصوع ، ثم تنقل بعد ذلك الى مصر ، بواسطة السكة الحديد ، فلو تم ذلك لزاد من تكاليف نقلها الى مصر (١٠) ».

واضح من هذا الخطاب أن اسماعيل ، كان يريد أن يقلل من أهمية سكة حديد السودان ، حتى لا يعمل السلطان العثمانى من جانبه على عرقلة تنفيذها ، وخاصة بعد أن أفهمه والى جده باهمية ميناءى سواكن ومصوع ، ونصحه بعدم التنازل عنهما الى مصر ، ولكن يبدو أن السلطان اقتنع بوجهة نظر اسماعيل ، والدليل على ذلك انه وافق على منحه هذين الميناءين (١١) وعلى اثر ذلك شكر السلطان العثمانى، على هذه الموافقة الجليلة (١٢) .

---

(١٠) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٢١ عابدين تركى ، وثيقة ١٠٢ ص ٢٨٣ فى ٢٨ القعدة سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(١١) وثيقة ١٥ فى ٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(١٢) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٢١ عابدين ــ وثيقة ٢٥ ص٢٠٣ فى ٢٣ جماد أول سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

بعد ذلك قرر اسماعيل مد خطين من سكة حديد السودان (١٣) ، يبدأ أحدهما من أسوان وحتى الخرطوم ، ويبدأ الاخر من بربر او شندى على النيل النوبى الى سواكن او مصوع على البحر الأحمر ، وذلك لأن هذين الميناءين هما المنفذين الوحيدين للسودان ، وهما اللذين يربطونه أيضا بالعالم لخارجى (١٤) .

٣ ـ البعثات :

بعد أن اقتنع الخديو اسماعيل بأهمية هذا المشروع ، قرر أن يرسل عددا من البعثات الكشفية ، لكشف بعض المناطق المزمع مد السكة الحديد من خلالها ، وذلك لعمل الدراسات اللازمة لمعرفة مدى صلاحيتها من عدمه ، وكان اسماعيل يقدم على مشروعه بكل حذر ، خوفا من غدر السلطان العثمانى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان يخشي ملك الحبشة ، لأنه فى حالة نشوب أية حرب بين الدولتين فان هذا سوف يؤدى الى تدمير هذه السكة ، وخاصة خط الشرق ، الذى يربط بين سواكن وبربر (١٥) ولكن على الرغم من هذه المخاطر المحتملة ، الا أن اسماعيل بدأ فى تنفيذ مشروعه ، وذلك بارسال البعثات الكشفية الواحدة تلو الأخرى .

ـ البعثة الأولى :

فى عام ١٨٦٤ ارسل اسماعيل ، بعثة كشفية مكونة من اثنين من المهندسين الانجليز ، كان يدعى احدهما برى Bray ويدعى الاخر وولكر Walker وكان هذان المهندسان تابعين لشركة وورنج برزر لندن Waring brother London وقد زودت هذه البعثة أيضا بطبيب وطباخ ومترجم ، واثنين من أغوات دار الضيافة ، وذلك لقيامها باكتشاف المنطقة التى تمتد

---

(١٣) Mandour El-Mahdey : op. cit. P. 77.

(١٤) د. صلاح الدين الشامى : المصدر السابق : ص ص ١٠ ـ ١١ .

(١٥) Hill, R : Sudan transport. op. cit. P. 9.

بين اسوان وكرسكو ، وزودت كذلك بعـدد من القرب اللازمة لحفظ المياه (١٦) ، بالاضافة الى تزويدها بكمية من الأطعمة التى تكفى لمدة ثلاثة شهور وقد تضمنت هذه الكمية من الأطعمة اللحوم المحفوظة والسردين والفاصوليا والبطاطس وبعض المعلبات ، والارز والسمن والجبن والبقسماط، زيادة على ذلك فانها زودت بنحو ١٢٠ زجاجة بيرة ، ٢٤٠ زجاجة نبيذ وكمية من الشاى ، وبعدد من الشوك والملاعق (١٧) . وكان الخديو قد أمر حكمدار السودان أن يعين برفقة هذه البعثة دليلين ، ممن لهم دراية بأحوال طرق الصحراء ، وذلك لاقتياد البعثة فى الطريق الصحيح ، واشترط الخديو ان يكون هذان الدليلان من جماعة حسن خليفة ، الذى تنبه عليه ايضـا انه فى حالة عدم معرفتهما لأقصر الطرق ، فانهما سوف يعرضان انفسهما لأشد العقاب ، وطلب اسماعيل من حكمدار السودان كذلك أن يعين خفيرين وموظفا لمرافقة البعثة (١٨) واشترط أن يكون الموظف كممثل للحكومة الخديوية . وبالاضافة الى ذلك كله فان البعثة زودت ببغلين وبعدد من الجمال ، لاستخدامهم فى نقل أفراد البعثة (١٩) .

وبعد أن أنهت هذه البعثة مهمتها ، كتبت تقريرا ، أوضحت فيه خط سيرها الذى بدأ من أسوان وحتى كرسكو ، ومنها عبرت صحراء العتمور ، الى أبو حمد ، ومنها الى شندى ومن شندى الى المتمة ، وكانت البعثة قد مرت بعدد من الآبار الموجودة بصحراء بيوضة ، التى تميزت مياهها بالوفرة ، حيث كانت تكفى القوافل والمسافرين ، وأوضحت البعثة ايضـا

---

(١٦) Ibid. P. 9.

(١٧) محافظ أبحاث السـودان ــ دفتر ٥٤٩ معية تركى ، وثيقة ٢٦ ص ٧٣ فى ١٦ جماد آخر سنة ١٢٨١ الموافق ١٨٦٤م .

(١٨) محافظ أبحاث السـودان ــ دفتر ٥٤٥ معية تركى ، وثيقة ٤ ص ٣٤ فى ١٦ جماد ثان سنة ١٢٨١ الموافق ١٨٦٤م .

(١٩) محافظ أبحاث السـودان ــ دفتر ٥٤٥ وثيقة ٢٧ ص ٨٥ فى ٢٩ جماد ثان سنة ١٢٨١ الموافق ١٨٦٤م .

أن هذا المشروع سوف يتكلف حوالى ٩ مليون من الجنيهات المصرية ، ويستغرق العمل فيه مدة تتراوح فيما بين ٦ ، ١٠ سنوات (٢٠) .

ـ البعثة الثانيـة :

أرسلت مصر عام ١٨٦٥ بعثة كشفية أخرى تحت رئاسة المسيو هجلين وذلك لكشف الطريق الممتد بين عقيق على البحر الأحمر والخرطوم الواقعة عند ملتقى النيلين الأزرق والابيض وذلك لدراسة هذه المنطقة،وبعدان انهت هذه البعثة مهمتها ، قررت انه فى الامكان مد خط حديدى يربط عقيق بقوز رجب ؛ ويبلغ طوله ١٧٠كم ، وبعد ذلك يمتد من قوز رجب الى الخرطوم ؛ بحيث يبلغ طوله ١٨٠كم ؛ وتقضى الخطة أيضا بأن يمر هذا الخط بعفافيت ، التى تقع على مسافة ٤٠ ميلا من عقيق ؛ ومن بعدها يسير مسافة ٨٠ ميلا الى منطقة وندى الواقعة فى وادى لنجب حيث يقـابل طريق القوافل الرئيسى الذى يربط كسلا بسواكن ، ويرى أن يتجه هذا الخط بعد ذلك الى طريق وادى أرتاب ، بحيث يسير من خلاله حتى يصل بعد ٧٠ ميلا الى راسى Rassi ، ومنها الى فليك Filik ؛ ثم الى قوز رجب ؛ ويرى هجلين أن هذا المشروع ممتاز ، بسبب توفر كثير من المزايا الخاصة به والتى لاتتوفر لغيره من المشروعات الأخرى ، مثل مشروع سواكن ـ بربر ؛ الذى يصعد تلال البحر الاحمر بعد مسافة ٨٠ ميلا من خط الساحل ، ويرتفع الى ٢٠٠٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، ويصعد طريق مصوع ـ كسـلا الى ارتفاع ٨٥٠٠ قدما ، على حين أن طريق عقيق ـ الخرطوم ، لايصعد اكثر من ١٦٥٠ قدما ، وخاصة فى منتصف المسافة الواقعة بين خط الساحل، وقوز رجب ، وكان من مميزاته أيضا أنه يتجنب كثيرا من العقبات (٢١) .

ـ البعثة الثالثـة :

أرسلت مصر بعثة اخرى ، كانت تحت قيادة بارسونز وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين بربر ـ ادارما ـ سواكن وبعد أن انهت هذه البعثة

---

(٢٠) Hill, R. : Sudan Transport. op. cit. PP. 9-10.

(٢١) د. صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ، ص ص ٢٥ ـ ٢٧ .

مهمتها قررت ان يمد خط حديدى يبدأ من بربر الى ادارما ، بحيث يسير على الضفة اليمنى لنهر العطبرة ، واقترحت هذه البعثة أن يتفرع هذا الخط الى فرعين ، يتجه احدهما الى قوز رجب ، ثم الى مجاتا Mugatta ، بعد أن يعبر نهر العطبرة الى ضفته اليسرى ، ثم يتجه بعد ذلك الى القضارف ، فسنكات ، ويتميز هذا الخط بأنه يربط بين الأقاليم النيلية بصفة عامة ، وسواحل البحر الأحمر بصفة خاصة ، كما أنه لايحتاج الى العديد من الكبارى أو الجسور أو المعابر (٢٢) .

ـ البعثة الرابعة :

على الرغم مما حققته البعثات السابقة من نتائج ، الا أن اسماعيل ، قرر ارسال بعثة اخرى . ففى عام ١٨٦٧ أصدر أمرا الى اسماعيل بك الفلكى ، لكى يقوم على راس بعثة كشفية لدراسة امكانية مد سكة حديد تبدأ من سواكن الى شندى ، أو من سواكن الى بربر ، وقد اصطحب معه المهندس هاملتون لى سميث Hamilton Lie Smith عضو جمعية المهندسين الملكية بلندن ، ومهندس سكك حديد مصر سابقا ، وبعد أن انهت هذه البعثة مهمتها ، كتبت تقريرا ، تضمن كافة المشاهدات والملاحظات . فقد جاء به ان طول الخط الذى يبدأ من سواكن الى شندى يبلغ حوالى ٥٨٤ كم ، ويمكن تنفيذه بسهولة ، بينما يبلغ طول الخط الثانى الذى يبدأ من سواكن الى بربر حوالى ٣٠٠ ميل ، ولكن على الرغم من قصر طوله ، الا أنه لايمكن تنفيذه بسهولة ، وذلك لوجود الجبال المرتفعة ، والوديان الكثيرة التى ـ تعترض خط سيره (٢٣) بالاضافة الى ذلك ، فانه يوجد به عدة انحدارات ، تبدأ اولى هذه الانحدارات من سواكن الى العطبرة ، ويبلغ طولها حوالى ٩٠ ميلا وارتفاعها ١٢٠٠ قدما ، ويبدأ ثانيها من خور العطبرة وحتى كوكرب ، ويبلغ طولها ٤٠ ميلا ، وارتفاعها يتراوح فيما بين ٦٠٠ ، ١٨٠٠ قدما ، ويبدأ ثالثها من كوكرب الى اربوك ، ويبلغ طولها حوالى ٦٠ ميلا وارتفاعها حوالى ٩٠٠ قدما ، ويبدأ رابعها من اربوك الى بربر ، ويبلغ طولها حوالى ٥٠ ميلا ، وقد جاء بالتقرير أيضا ان تنفيذ هذا الخط يحتاج لمدة قدرها ١٨

---

(٢٢) د. صلاح الدين الشامى : نفس المصدر ، ص ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٢٣) محافظ أبحاث السودان ـ دفتر ٥٦٠ وثيقة ٨٩ فى ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ الموافق ١٨٦٧م .

شهرا ، وتبلغ تكاليف الكيلو متر الواحد حوالى ٢٩٥٠ جنيها ، بما فى ذلك ثمن المعدات الخاصـــة بالمشروع (٢٤) .

ـ البعثة الخامســـة :

لم يكتف اسماعيل بالنتائج السابقة ، بل قرر فى عام ١٨٧١ أرسال بعثة اخرى ، لكى تقوم بعمل مسح شامل ، لمنطقة النوبة بصفتها المنطقة التى سوف يبدأ فيها انشاء أول خط حديدى يربط مصر بالسودان . وكانت هذه البعثة تحت رئاسة المستر فولر Mr. Fouler ، وبعد أن اكملت هذه البعثة استعداداتها ، ذهبت الى أسوان ، ومنها واصلت المسير الى بلدة شندى ، وهناك تمكنت من عمل المسح اللازم . بعد ذلك كتب فولر تقريرا ، ضمنه كثيرا من الملاحظات والمشاهدات التى كان منها ضرورة انشاء المحطة النهائية لهذا الخط الحديدى عند بلدة المتمة ، الواقعة على الشاطىء الايسر للنيل أمام شندى ، والتى تقع على خط عرض ٤٠' ، ١٦° شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٤٥' ، ٣٢° شرقى جرينتش ، وقد تم اختيار بلدة المتمة كمحطة نهائية ، لانها تتوسط المسافة بين بربر والخرطوم ، فهى تقع على بعد ١٦٠ كم من كل منهما . كما أنها تعتبر مركزا تجاريا هاما ، تتجمع فيه السلع التجارية ، كما أن شندى تعتبر ملتقى طرق القوافل التى ترد من الخرطوم ومنطقة النيل الأبيض وسواكن وابى حراز ومناطق النيل الأزرق الاخرى ، ولكن على الرغم من أهمية موقع بربر ، الا أن السفر اليها فى النيل كان يتوقف لمدة شهرين فى السنة ، وذلك لشدة التيار ، بالاضافة الى وجود بعض الصخور ، التى تعترض مجرى النهر ، وخاصة بالقرب من مصب نهر العطبرة (٢٥) .

وجاء بالتقرير أيضا وجه الاختلاف بين صحراء النوبة ، وصحراء بيوضة، فالأولى تميزت بأنها مقفرة ، وبها وديان عميقة ومياه آبارها مالحة ولا تصلح للوابورات ، بينما تميزت الثانية بأنها مستوية السطح وتتوفر فيها

---

(٢٤) محافظ مجلس الوزراء (سودان) محفظة ١٥ .
(٢٥) تقرير المستر فولر : المصدر السابق .

المياه العذبة والاشجار والأعشاب التى تصلح كوقود للوابورات . وجاء بالتقرير الاشارة الى الغاء خط كورسكو ، والبدء فى خط حلفا ـــ شندى ، وتقرر ايضا عدم مد السكة الحديد بجوار الجانب الأيسر للنهر ، وذلك لوجود الرمال المتحركة بكثرة ، على هذا الشاطىء ، بالاضافة الى انه مستقيم ، ولايحتاج الى عمل قناطر عليه ، وكان قد تقرر انشاء محطة عند أمبيجول ، لأنها تعتبر المدخل الى صحراء بيوضة ، زيادة على أنها تقع على منطقة صلبة من الشاطىء وانها تقع فى ملتقى وادى المقطم ، الذى يمكن استغلاله فى مد السكة الحديد من خلاله بسهولة ، وينقسم هذا الخط الذى تقرر انشاؤه الى ثلاث اقسام على النحو التالى : ـــ

ـــ الخط الأول ، ويبدأ من وادى حلفا وحتى بلدة كوهه الواقعة على الشاطىء الأيمن للنهر ، ويبلغ طوله حوالى ٢٥٩ كم ؛ وكان قد تقرر أن تنشأ قنطرة على النهر عند بلدة كوهه .

ـــ والخط الثانى ويبدأ من كوهه الى امبيجول ، الواقعة على الشاطىء الأيسر للنهر ، ويبلغ طوله ٣٤٩ كم .

ـــ الخط الثالث ويبدأ من امبيجول الى شندى ، مارا بصحراء بيوضة ، ويبلغ طوله ٢٨١ كم ، ويبلغ الطول الكلى لهذا الخط ٨٨٩ كم ، ولو مد الى الخرطوم لأصبح طوله ١٣٠٠ كم (٢٦) وقدرت التكاليف الاجمالية لهذا الخط بنحو ٤ مليون جنيه مصرى ، بما فى ذلك تكاليف المحطات والمخازن والمهمات والورش . باعتبار أن الكيلو متر الواحد يتكلف حوالى ٤٥٠٠ جنيه مصرى ، وقد قسم هذا المبلغ على النحو التالى ١ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه مصرى قيمة أجور عمال ، وصناع ومهمات ، ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه مصرى تكاليف بناء مخازن ومحطات وورش ، بالاضافة الى زيادة قدرها ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه ، قيمة تكاليف السطح المائل (رصيف) ويستغرق العمل فى هذا الخط حوالى ٣ سنوات (٢٧)

وكان منزنجر باشا ، قد اقترح على الخديو اسماعيل أن الطريق الذى

---

(٢٦) نفس المصـــدر .

(٢٧) نفس المصـــدر .

يبدأ من شرق كورسكو الى بربر هو اقرب الطرق ، بالاضافة الى انه يوجد به آبار ذات مياه عذبة كما انه يساعد على توصيل السكة الحديد من بربر الى مصوع على البحر الأحمر ، واستند منزنجر فى تحليله ، على النقط التالية :

أولا ــ يقصد بانشاء الخط الحديدى الذى يربط مصر بالسودان الوصول الى مصوع الواقعة على البحر الأحمر .

ثانيا ــ ان اختيار الحكومة لانشاء هذا الخط ، هو تجنبها القيام بالاعمال الصعبة الموجودة بالمنطقة الواقعة بين أسوان ووادى حلفا .

ثالثا ــ يؤدى انشاء هذا الخط الى الاستغناء عن عمل السطح المائل المزمع انشاؤه عند أول شلال ، لأن المراكب تمر فى هذه المنطقة دون أدنى صعوبة .

رابعا ــ يؤدى هذا الخط الى تفادى عمل قنطرتين ، احداهما على النيل والأخرى على نهر العطبرة .

خامسا ــ يجب ان يبدأ العمل فى هذا الخط من شمال أسوان بدلا من البدء فيه من وادى حلفا ، لان بلدة حلفا فقيرة وقليلة العمران بخلاف أسوان التى يمكن الحصول منها على المهمات والمؤن .

سادسا ــ يمكن انهاء هذا الخط فى مدة وجيزة وسوف يعود هذا الخط على مصر بالفوائد الكثيرة والتى لاتعد ولا تحصى (٢٨) .

واضح أن منزنجر كان يحبذ تنفيذ الخط الحديدى ، الذى يربط مصوع وبربر ، ربما لانه كان يقصد من وراء ذلك ، خدمة المصالح الاوربية وهذا من المؤكد ، وربما كان يقصد ايضا خدمة المصالح المصرية وهذا من المحتمل .

---

(٢٨) نفس المصدر .

ـ البعثة السـادسة :

لم يكتف اسماعيل بكل هذه الدراسات ، بل قرر ارسال بعثة أخرى كانت تحت رئاسة ، عبد القادر بك ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين اسوان وبربر ، حتى يتأكد من صحة النتائج التى ذكرها منزنجر باشا ، وقد ورد بتقرير هذه البعثة أن طريق اسوان ـــ بربر ملائم لمد السكة الحديد من خلاله ، ويبلغ طوله ٤٨٥ كم ويتميز هذا الخط بانه اقل طولا من الخط الذى اكتشفه فولر ، والذى يبدأ من حلفا وحتى المتمة ، وكل ما يلزمه هو انشاء قنطرة على نهر العطبرة (٢٩) .

ـ البعثة السـابعة :

تمثلت البعثة السابعة فى قيام الكولونيل كولستون على راس عدد من الجنود المصريين من القاهرة عام ١٨٧٣ لمسح المنطقة الواقعة بين قنا على النيل ، وبرنيس على البحر الأحمر ، وذلك تمهيدا لمد سكة حديد من خلال هذه المنطقة وقد كتب كولستون تقريرا وافيا ، ضمنه مشاهداته وملاحظاته عن طبيعة هذه المنطقة واكد فى تقريره امكانية مد خط حديدى يربط بين النيل والبحر الاحمر وذلك لخدمة البلاد (٣٠) .

ـ البعثة الثامنة :

وفى نفس العام قام الكولونيل بوردى Burdy على رأس بعثة اخرى لكشف المنطقة الممتدة من برنيس على البحر الأحمر ، وحتى بربر (٣١) على

---

(٢٩) سجل رقم ٢٨٧٣ ، وثيقة ٤٨٦ ص ١٢٢ فى ١٩ جماد اول سنة ١٢٩٠ الموافق ١٨٧٣م .

(٣٠) Colonel Colston, R.E. : Journal D.un voyage du caire A Keneh, Berenice et Berber et retour par le desert de korosko. vol. II. PP. 489-568.

(٣١) انظر خريطة المنطقة الواقعة بين برنيس على البحر الأحمر وبربر على النيل النوبى فى كتاب جهود مصر الكشفية للمؤلف .

النيل ، تمهيدا لمد خط حديدى يربط النيل النوبى بالبحر الأحمر ، وكتب بوردى تقريرا شاملا ، ضمنه مشاهداته وملاحظاته ، لهذه المنطقة ، وذكر أيضا انه لايوجد أى عقبات أمام مد سكة حديد (٣٢) .

ـ البعثة التاسعة :

لم يقتصر نشاط اسماعيل على منطقة النيل النوبى فحسب بل امتد أيضا الى منطقة غرب السودان ، ففى يوم الاحد ١٤ من شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م أرسل بعثة كشفية تحت رئاسة المسيو سمسون Semson وذلك لارتياد سكة الدبة ـ الفاشر ، وكان عليها أن تتجه من بربر الى الخرطوم ، ومنها الى دارفور ، وذلك لعمل الدراسات اللازمة لمد السكة الحديد الى غرب السودان ، وفى اليوم التالى لقيام هذه البعثة ، أعقبتها بعثة أخرى ، بدأت مهمتها من دنقلة الى دارفور أيضا ، وكانت تحت رئاسة المسيو بكويل Bekuel وذلك لنفس الغرض (٣٣) . وفى نفس العام كذلك قام الكولونيل كولستون ، على رأس بعثة كشفية اخرى ، من بلدة الدبة الى الابيض (٣٤) وعندما وصلت بعثته الى الابيض قابل هناك بروت بك ، بعد ذلك اتجه معا الى الخرطوم (٣٥) .

بعد كل هذه الدراسات انتهى اسماعيل الى قراره النهائى ، بمد السكة الحديد الى السودان ، والتى بلغ طولها ٢٤٥٠ كم واشتملت على ثلاث خطوط على النحو التالى :

ـ الخط الاول ويبدا من حلفا وحتى المتمة ، ويبلغ طوله ٨٠٠ كم .

---

(٣٢) Colonel Purdy : Une reconnaissance entre Berenice et Ber- ber. Serie II. N. 9. PP. 431-445.

(٣٣) محفظة ٥٢ وثيقة ٣٥٩ فى ١٨ القعدة سنة ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م

(٣٤) انظر خريطة المنطقة الواقعة بين الدبة والابض بكتاب جهود مصر الكشفية فى افريقيا للمؤلف

(٣٥) Coloston, R.E. : Le route entre Debbeh et El-Obeyd Bul, Soc. Kh. Geog. N. II. PP. 203-208.

ـ الخط الثانى ويبدأ من الدبه الى الفاشر ، ويبلغ طوله ٨٠٠ كم .

ـ الخط الثالث ويبدأ من شندى الى سواكن على البحر الأحمر ويبلغ طوله ٨٥٠ كم (٣٦) .

٤ ـ انشاء المحطات :

بعد الانتهاء من كل هذه الدراسات ، بدات مصر فى ارسال المهمات والمعدات اللازمة ، لانشاء المحطات ، وكان قد اتفق ان تقوم مراكب الاهالى بنقل هذه المهمات ، فى نظير أن تتقاضى قرشاواحدا ، ٢٤ فضة عن نقل القطعة الواحدة من الأخشاب اللازمة لعمل الفلنكات . بينما لو استخدمت صنادل الحكومة فى نقل هذه المهمات ، لزادت تكاليف النقل ، لانها كانت ستتقاضى أجرا قدره ، ١٥ قرشا ، ١٤ فضة عن نقل نفس القطعة ، لذلك فضل أن تقوم مراكب الاهالى بنقل هذه المهمات والمعدات (٣٧) وقد عين المستر كيلجور Kilgour للقيام بمهمة فرز الأخشاب التى ستستخدم كفلنكات للسكة الحديد (٣٨) ، زد على ذلك فان اسماعيل عين مأمورا ، لمتابعة تنفيذ الاعمال فى مشروع السكة الحديد الجديدة ، وعرف هذا المأمور باسم ، مأمور اشغال السكة الحديد (٣٩) وبعد أن تفقد هذا المأمور أحوال العمل فى المشروع طلب من الخديو أن يرسل له ستة مهندسين من ارباب الرتب الصغيرة ، على أن يكون رئيسهم برتبة بكباشى أو قائمقام ، وذلك لتدعيم القوة الموجودة فى ميدان العمل (٤٠) بالاضافة الى ذلك فانه طلب عددا آخر من العمال ليقوموا بمد الجسر ، الذى سوف توضع من فوقه اشرطة السكة الحديد المزمع انشاؤها . فعلى الفور طلب خيرى باشا من مدير دنقلة ، أن يرسل لمأمور اشغال السكة الحديد حوالى ٣٠٠٠

---

(٣٦) صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ص١٣ .

(٣٧) دفتر ١٤٨ معية عربى ، وثيقة ١٣ ص٧ فى ١٩ شعبان ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م .

(٣٨) نفس المصدر .

(٣٩) محفظة ٥٢ ، المصدر السابق .

(٤٠) محافظ ابحاث السودان ـ دفتر ٥ ـ وثيقة ١٢٨ ص ١١١ فى ٣ رجب سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

عامل للمساهمة فى مشروع مد السكة الحديد وكلفه أيضا أن يزود هؤلاء العمال بحوالى ٣٥٠٠ اردب ذرة ، على شرط أن تخصم اثمانها على جانب الحكومة (٤١) . ولكن عندما بدأ مدير دنقلة فى جمع العمال ، واجه صعوبة ، وهى أن العمال رفضوا الذهاب الى ميدان العمل ، وعللوا رفضهم فى الذهاب الى مواقع العمل بأن زراعتهم سوف تتوقف وتتعرض الى الاهمال ، بالاضافة الى أن عددهم قليل ، وقالوا انهم فى حالة جمعهم بالقوة ، فانهم سوف يضطرون الى الفرار ، وسوف يترتب أيضا على ذلك بالتالى خراب البلاد . ولكن لما علم خيرى باشا بهذا قال :

« انهم ليسوا قليلو العدد ، كما يدعون ، بل انهم كثيرون فهم يذهبون الى جهات بحر الغزال ، وخط الاستواء وكردفان ودارفور ، وهناك يقومون بالاغارة على سكان هذه البلاد ، لاسترقاقهم ، والاتجار فيهم ، مع أن هذه التجارة ممنوعة » (٤٢) .

لما علم الخديو اسماعيل بخبر عصيان هؤلاء العمال ، المقرر جمعهم من دنقلة ، للعمل فى مشروع السكة الحديد ، طلب من حكمدار السودان ، أن يجمعهم بالقوة الجبرية ، وفى حالة رفضهم ترسل لهم عساكر الباشبوزق لجمعهم وارسالهم الى محل العمل قهرا (٤٣) زيادة على ذلك فانه أصدر أمرا ، بضم اسوان وحلفا الى دنقلة ، حتى يتمكن مأمور اشغال السكة الحديد من ممارسة سلطاته بحرية وعلى نطاق واسع ، بالاضافة الى موافاته بكشوف تتضمن الاموال والعشور المقررة على سكان هذه البلاد ، حتى يتسنى

---

(٤١) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٢٣ عابدين ، صادر تلغراف ، وثيقة ٥٠٨ ص٨٦ فى ١٦ رجب سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

(٤٢) دفتر ٢٢ عابدين ، صادر تلغراف ، وثيقة ٣٤٢ ص٧٣ فى ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

(٤٣) دفتر ٢٢ عابدين ، وثيقة ٢٦٣ ص ٥٩ فى ٧ ربيع أول ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٥م .

له جمعها بسهولة (٤٤) وذلك للاستفادة بها فى تنفيذ ذلك المشروع (٤٥) وبعد أن اكتملت المهمات والعمال ، بدأ العمل فى بناء المحطات الخاصة بالسكة الحديد فى كل من أسوان والشلال وحلفا .

ـ محطة اســوان :

أنشئت محطة أسوان ، فى الجهة الشرقية من نهر النيل ، وقد استخدم فى بنائها الطوب اللبن ، والمونة الطينية ، وقد أحيطت حواف نوافذها وعقودها ، بأحجار من الدبش الصغير الحجم وتكونت هذه المحطة من طابق واحد يضـــم ثلاث غرف .

ـ محطة الشــلال :

بنيت هذه المحطة بجوار جزيرة فيلة ، الواقعة فى الجهة الشرقية من النهر ؛ وقد بنيت ايضا من الطوب اللبن والمونة الطينية ، وهى مثل محطه اسوان من حيث التصميم ، وتتكون من ثلاث غرف ، وهى مستطيلة الشكل (٤٦) .

ـ محطة حلفا :

توجد محطة حلفا فى قرية عنجس ، التابعة لبلدة حلفا ، وكانت هذه القرية تتكون من ١٥ منزلا سكن جميعها بعدد من موظفى الحكومة ، وزودت بطاحونة ، ومخزن صغير للجبخانة . وقد بنى فى محطة حلفا جسر ، بلغ طوله ١٤ كم وذلك لتوضع فوقه القضبان الحديدية المراد مدها وقام العمال ايضا بصناعة كميات كبيرة من الطوب اللبن ، بلغ عددها حوالى ١ر٤٠٠ر٠٠٠

---

(٤٤) دفتر ٢ أوامر عربى وثيقة ٣٢ ص٨٢ فى ١٠ شعبان ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م .

(٤٥) دفتر بدون رقم أوامر عربى ـــ وثيقة ٢٢٦ ص١٠٤ فى ١٠ شعبان سنة ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥م .

(٤٦) محفظة ٥٢ وثيقة ٣٥٩ ، المصدر السابق .

طوبه وذلك لاستخدامها فى بناء دار للحكومة ، بالاضافة الى بناء عدد من المنازل المخصصة لسكنى الموظفين والمهندسين ، وبنى كذلك عدد من الشون والمخازن ، وبنى بها أيضا مستشفى وسوق وجامع ومدرسة لتعليم ابناء الموظفين (٤٧) .

كان العمل فى مد شريط السكة الحديد ، يسير جنبا الى جنب مع بناء المحطات ، فقد مد على الضفة اليمنى من النهر جزء من خط اسوان ـ شندى ، بلغ طوله ٥٣ كم وكان قد وصل هذا الخط الى بلدة سرس (٤٨) ولم يستمر العمل فى هذا الخط بل توقف بصفة نهائية منذ عام ١٨٧٨م ، بعد أن انفق عليه مبلغا وقدره ٤٥٠،٠٠٠ جنيه مصرى (٤٩) ويرجع السبب فى توقف العمل فى هذا الخط الحديدى ، الى عاملين أساسيين أولهما تدهور الموقف المالى فى مصر ، وثانيهما رفض غردون باشا لتنفيذ هذا المشروع (٥٠) ويرجع رفض غردون الى عدة عوامل منها أنه خشى عدم استفادة بريطانيا اقتصاديا من هذا المشروع ، ومنها أيضا انه فضل أن يظل السودان منفصلا عن مصر ، حتى يمكن له التصرف فى شئونه كيفما يحلو له ، وخاصة وانه كان فى ذلك الوقت صاحب الكلمة المسموعة لدى الخديو اسماعيل ، ولكن يعاب عليه عدم نكائه وبعد نظره تجاه تنفيذ هذا المشروع ، فلو كان غردون وافق على تنفيذه لانقذ نفسه ، ومن معه من غدر الدراويش ، الذى راح هو ضحيتهم ، فكان السبب الأساسى لهذه الكارثة الشنيعة ، هو عدم وصول النجدات العسكرية على وجه السرعة ، وذلك لصعوبة خطوط المواصلات ، التى تربط مصر بالسودان ، فى ذلك الوقت . ويمكن تعليل وقف تنفيذ المشروع أيضا الى انشغال اسماعيل بحروبه ضد الحبشة وهى التى كلفته الكثير ، وربما يرجع ذلك الى انه شعر بالمؤامرات التى كانت تحاك ضده ، لخلعه من حكم مصر ، فأهمل هذا المشروع الحيوى .

---

(٤٧) نفس المصـــــدر .

(٤٨) د. صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ، ص١٣ .

(٤٩) Report on the Egyptian provinces. op. cit. P. 26.

(٥٠) د . صلاح الدين الشامى : المصدر السابق ص ١٤ .

ولكن على الرغم من توقف العمل فى تنفيذ هذا المشروع ، الا ان الحكومة المصرية قامت بتشغيل جزء منه ابتداء من محطة اسوان وحتى محطة قرية الشلال ، وقد بلغ طول هذا الجزء الذى تم تشغيله حوالى ٧ أميال وبلغ ايراده فى شهر ديسمبر عام ١٨٧٥ ١٠،٠٠٠ قرشا (٥١) فلو قدر لهذا الخط النجاح ، لعاد على مصر والبلاد الاخرى بالنفع والخير الوفير .

استمر توقف مد السكة الحديد الى السودان حتى عام ١٨٩٦م ففى هذا العام بدأت كل من بريطانيا ومصر العمل معا على استرداد السودان ؛ وفى نفس الوقت وفى أثناء عمليات الزحف العسكرية بدأت الدولتان فى مد السكة الحديد الى السودان وذلك لتمكين القوات المتحاربة من الحصول على احتياجاتها من مؤن وذخائر بسهولة فى نهاية العمليات العسكرية كانت السكة الحديد قد وصلت الى الخرطوم ، وكان لها دور هام فى نقل الانتاج السودانى الى موانى التصدير (٥٢) وقد تطور الاقتصاد السودانى ، بسبب مد السكة الحديد التى ربطت شرقه بغربه ، ورغم ما أنتاب انشاءها من صعاب . تمثلت فى عدم استخدام المعدات الحديثة فى مد هذه السكة الحديد ، بالاضافة الى عدم معرفة المهندسين القائمين على انشائها ، لطبيعة الأرض السودانية ، زيادة على قلة راس المال ، اللازم لمد هذه السكة (٥٣) . ولم يكن السودان البلد الوحيد الذى سبق غيره فى هذا المجال (٥٤) .

وبعد ان انهيت الكتابة عن مد السكة الحديد الى السودان فى عصر اسماعيل نتناول موضوع المواصلات السلكية .

---

(٥١) دفتر ١٧ معية عربى ، وثيقة ٩٠ ص٥٩ فى ٢٥ محرم ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٥٢) Numerous authers : op. cit. P. 178.

(٥٣) Virginia Thompson and Richard Adolf. P. 292.

(٥٤) لم يعتبر السودان البلد الوحيد الذى دخلته السكة الحديد قبل غيره من دول القارة الافريقية ، جنوب الصحراء ، فقد سبقه فى هذا المجال دولة جنوب افريقية ، حيث انشىء اول خط حديدى فيها فى ٢٦ يونيو عام ١٨٦٠م ، وكان طوله ٢ ميل ، وفيما بعد اتسع نطاق مد السكة الحديد هناك . انظر:
Centenary of the South Africa Rail ways. P. 1.

ثانيا : المواصلات السلكية :

لم تقتصر اعمال اسماعيل ، على مد خطوط السكة الحديد الى السودان فحسب ، بل أيضا تضمنت مد شبكة واسعة من خطوط البرق والبريد ، لأنهما من وسائل الاتصال السريع ، بين البلاد بعضها البعض ، بل وبين شعوب العالم ، وسوف أتناول موضوع البرق والبريد كل على حدة : —

(أ) البرق :

قرر اسماعيل أن ينشىء عدة خطوط تلغرافية لخدمة البلاد السودانية ، لربطها بمصر ، وذلك لتسهيل نقل الأخبار والتعليمات على وجه السرعة من والى المحروسة ، ففى عام ١٨٦٨م تقرر انشاء خط تلغرافى يربط القاهرة بسواكن ومصوع (٥٥) ثم مد هذا الخط فيما بعد الى بلدة بعرزة وعدرسة وقياخور وبربرة ، وهم من بلدان الساحل الغربى للبحر الأحمر ، ومن المؤكد أن هذا الخط كان لخدمة القوات المصرية المعسكرة هناك وكان قد تقرر أن يتولى عساكر الباشبوزق حراسة هذه الخطوط ، ولكن لما تعذر تنفيذ ذلك تقرر أن يقوم العبيد بحراسته (٥٦) والى جانب هذا الخط انشىء خط يربط بين سواكن وكسلا وبربر (٥٧) وبعد ذلك مد خط من كسلا أيضا الى كوفيت وبوجوس Bogos والقضارف والمتمة ، وفى نفس الوقت مد خط من الخرطوم الى سنار ، ومنها الى فازوغلى ثم الى فادوسى Fadossi (يبدو انها فامكه) (٥٨) ومد خط كذلك من حلفا الى الخرطوم ، بلغ عدد أعمدته ١٥٧٧٣ عمودا ، كان منهم ٤٢٧٢ عمودا مصنوعة من حديد الزهر ، كانت قد استوردت من انجلترا خصيصا لهذا الغرض ، وكانت الأعمدة الحديدية قد استخدمت للمنطقة الواقعة بين حلفا ودنقلة ، ويبدو لكثرة القرضة الأرضية فيها وأما الأعمدة الخشبية فقد استخدمت فى المنطقة الواقعة

---

(٥٥) Document N. 288, Sudan telegeraph departement.

(٥٦) دفتر ٣٩ عابدين ، وثيقة ٥٠١ فى ١٦ ربيع ثان سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

(٥٧) Document. op. cit. N. 288.

(٥٨) Document. telegraph. N. 12960.

بين دنقلة والخرطوم ، وبلغ عددها حوالى ١١٥٠١ عمودا (٥٩) وفى عام ١٨٧٣ أنشىء خط تلغرافى آخر يربط بين الخرطوم وكردفان (٦٠) وكان العمل قد انتهى منه فى عام ١٨٧٦ ، وبلغ طوله حوالى ٣٤٠ كم ، وانشئت له محطتان كانت احداهما فى أم درمان ، والأخرى فى كردفان ، وخصص لكل محطة تلغرافجى لتشغيلها (٦١) وفى نفس العام مد هذا الخط الى دارفور ، كى يربطها مع بقية البلاد السودانية وكان هذا الخط قد نفذ على مرحلتين الأولى ، بدأت من كردفان الى قرية فوجه ، والثانية بدأت من فوجه الى الفاشر (٦٢) وفى عام ١٨٧٤ مد خط يربط الخرطم بغندوكرو مارا بمحطة كورفا Korfa التى توجد على مسافة ١١٠ ميل من الخرطوم (٦٣) وبلغت تكاليف هذا الخط ، ابتداء من الخرطوم وحتى المديرية الاستوائية حوالى ٣٨ الف جنيه مصرى (٦٤) .

وقد استخدمت فى انشاء هذه الخطوط كميات كبيرة من المهمات ، والمعدات والأدوات المتمثلة فى الاسلاك واجهزة مورس ، وبطاريات دانيال وتوتية ، وسلفا النحاس ، وحامض اللفريك والزنك ، وكميات كبيرة من الاحبار والحبال والقصدير وعدد من ساعات الحائط (٦٥) بالاضافة الى استخدام اعداد كبيرة من المناشير والفئوس والسلالم والخيام والمهندسين والعمال(٦٦)

---

(٥٩) دفتر ١٨٤٩ وارد معية ، وثيقة ١٤ صفحة ٤٥ فى ٣ ربيع ثان سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

(٦٠) دفتر بدون رقم وثيقة ٥١ فى ٨ الحجة ١٢٩٢ سنة ١٨٧٥م .

(٦١) دفتر ٤١ عابدين ، وارد تلغراف ، وثيقة ٢٠٩ فى ١١ رجب ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٦٢) دفتر ٤١ عابدين وارد تلغراف ، وثيقة ٣١٦ فى ٢٧ رجب ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٦٣) Document sans date, report des telegraph du Soudan.

(٦٤) دفتر بدون رقم المصدر السابق .

(٦٥) Document. op. cit. N. 288.

(٦٦) دفتر ٤٠ عابدين وارد تلغراف وثيقة ٤١١ ص٧١ فى ٤ جماد ثان سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

والأعمدة الخشبية والحديدية ، التى وردت من أوربا خصيصا لهذا الغرض، وكانت هذه الأعمدة الحديدية نوعين ، احداها قصير والاخر طويل ، وكان كل عمود من هذه الأعمدة يتكون من كرسى بقاعدة (كرسى بطبلية) ووصلة وسطى وأخرى علوية ، وبلغ ثمن العمود الطويل حوالى ١١٧ شلن ، بينما بلغ ثمن العمود القصير ١٠٧ شلن (٦٧) .

كانت الأعمدة الحديدية تعيش مدة طويلة ، لانها لاتتأثر بالعوامل الطبيعية أو بالتسوس أو بالحشرات الأرضية كالقرضة . أما الاعمدة الخشبية فكانت تتأثر بعوامل الطبيعة ، وبالقرضة الأرضية ، التى تجعلها غير قادرة على مقاومة الرياح والعواصف ، فكانت عندما تتعرض لأى نوع من انواع الرياح تسقط على الأرض تباعا ، وكان العمال يقومون باصلاحها من وقت لاخر وكانت طريقة الاصلاح المتبعة ، تتم بقطع الجزء المعطوب والقائمة بعيدا ، ثم اعادة تثبيت الجزء السليم فى الأرض من جديد بالاحجار والمونة وكانت هذه العملية تتكرر على مدار السنة مما تسبب عنه قصر هذه الأعمدة، بحيث اصبحت لاتصلح لأى شىء (٦٨) .

وكان الخديو قد أصدر تعليماته الى باشمهندس التلغراف بمتابعة المرور على هذه الأعمدة حتى يمكن اصلاح ما يتلف منها أولا بأول . ففى عام ١٨٧٦ قام باشمهندس التلغراف بالمرور على خط تلغراف الخرطوم ـ سنار ورأى أن هذا الخط تنتابه كثير من الأعطال التى أمر باصلاحها وأمر ايضا أن يقيم العمال بجوار هذا الخط فى مساكن بنيت لهم من القش والأخشاب حتى يتمكنوا من اصلاح ما يتلف منه أولا بأول (٦٩) وكان باشمهندس التلغراف عند المرور على المحطات ، وعندما يجد أحد التلغرافجية غير كفء فى عمله يقوم بتغييره واحلال من هو اكفأ منه محله (٧٠) .

---

(٦٧) دفتر ١٨٤٩ وارد معية ، المصـــدر السابق .

(٦٨) دفتر ١٨٤٩ وارد معية ، نفس المصـــدر .

(٦٩) دفتر ٤١ عابدين وارد تلغراف وثيقة ٤٤٣ فى ١١ شعبان ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٧٠) دفتر ٤٠ عابدين ـ وثيقة ١٩٩ ص٣٥ فى ١٣ جماد أول سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

ونظرا لكثرة الأخشاب فى السودان فقد تقرر أن تستخدم أعمدة للتلغراف بدلا من استيرادها من الخارج ، ففى عام ١٨٧٦م طلب اسماعيل من مدير التاكه أن يعد ٥٠٠٠ عمودا من الخشب من مديريته ، وذلك لاستخدامها فى خطوط التلغراف وقد أعد بالفعل الفين من هذه الأعمدة وارسلوا الى بلدة قوز رجب ، تمهيدا لنقلهم الى بربر ، ولكن عندما طلب من مدير دنقلة أن يقوم بنقلهم أفاد بأن مصاريف نقلهم تساوى ثمن شرائهم من الخارج (٧١) .

وقد تلاحظ أنه عند تركيب أعمدة التلغراف ، لم يراع أن توضع فى شكل مستقيم بل كانت تنشأ بطريقة متعرجة مما جعلها تحتاج الى كميات كبيرة من المهمات والمعدات ولكن لما علم اسماعيل بذلك ، أصدر تعليماته الى باشمهندس التلغراف سلامة بك ، بأن يراعى الدقة والتنظيم عند انشاء مثل هذه الخطوط (٧٢) .

وفى نهاية حكم اسماعيل ، أصبحت جميع البلاد السودانية وسواحل البحر الأحمر ، وغرب السودان ، ومديرية خط الاستواء ، مرتبطة بشبكة من خطوط التلغراف ، التى كان لها اثر كبير ، فى سرعة توصيل الاخبار والتعليمات لجميع الجهات السودانية وهى على النحو التالى :

ـ خط يربط بين القاهرة ، ووادى حلفا ، ودنقلة ، والدبه ، ومروى ، وبربر وشندى ، والخرطوم (خط مزدوج) .

ـ خط يربط بين القاهرة وسواكن ومصوع ، وكسلا والخرطوم (خط مفرد) .

ـ خط يربط بين الخرطوم وباره والابيض وفوجه وأم شنقة والفاشر (خط مفرد) .

---

(٧١) دفتر ٤٠ عابدين وارد تلغراف وثيقة ٤٥ فى جماد ثان سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٧٢) دفتر ٤١ عابدين وارد تلغراف ـ وثيقة ٢١٠ فى ١١ رجب سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٧٣) Report on the Egyptian provin ce. op. cit. PP. 130,146.

ـــ خط يربط بين الخرطوم والمسلمية وابى حراز وسنار ودارفور وبارة (خط مفرد) .

ـــ خط يربط بين ابى حراز والقضارف والدوكا والقلابات (خط مفرد) .

ـــ خط يربط بين بربر وتوز رجب وكسلا (خط مزدوج) .

ـــ خط يربط بين كسلا والمحرقة وتيرى (خط مفرد) .

ـــ خط يربط بين كسلا والفيلك وسواكن (خط مفرد) .

ـــ خط يربط بين كسلا واميديب وسنهيت ومصوع (خط مزدوج) .

وقد زودت هذه الخطوط بالمحطات اللازمة ، التى خصص لادارة كل منها ، ضابط وعشرة عساكر ، واذكر على سبيل المثال وليس الحصر أن عدد المحطات التى وجدت فى المنطقة الواقعة بين سواكن وكسلا ، بلغ حوالى عشر محطات (٧٣) وكان السكان السودانيون فى مناطق وجود خطوط التلغراف يخافون من أسلاكها ، فكانوا لايحاولون الاقتراب منها اعتقادا بأنها توصل أصواتهم الى الحكمدارية بالخرطوم (٧٤) .

---

(٧٤) وصف ميكلين Miklin فى كتابه أوغندا والسودان المصرى ، خط تلغراف الخرطوم ـــ دارفور بقوله :

« ان المسافة بين كل عمود والاخر ، بلغت حوالى ١٠٠ ياردة ، وان ثمن العمود الواحد بلغ خمسة جنيهات ، وان الأعمدة كانت مصنوعة من الحديد المجوف ، وكان كل عمود يتكون من جزئين ، الجزء الأسفل منه ، كان يدفن فى الأرض ، بعد ذلك يلف حول وسط كل عمود سياج من السلك الشائك ، وذلك لحمايته من الماشية المالية لحك جسمها فى هذه الأعمدة ، وكان المواطنون ، يبيتون فى رعب من أسلاك خطوط التلغراف لأنهم كانوا يعتقدون فى أنها قوة سحرية ، ووصل بهم الأمر الى أنهم كانوا يخشون الكلام بالقرب منها ، خشية أن تقو بنقل الأخبار التى تسمعها الى الخرطوم . لذلك حذر السكان التحدث بجوارها ، واعتقادا منهم بأنها من عمل العفاريت حتى أنهم كانوا يستغربون الأصوات التى تحدثها هذه الأسلاك بسبب تأثير الرياح عليها ، وقالوا أن هذه الأصوات هى كلام العفاريت » .

ـــ أنظر كتاب أوغندا والسودان المصرى ، وانظر تقريرا عن الأقاليم المصرية فى السودان صفحة ١٣٠ ، ١٤٦ وانظر الوثيقة رقم ٧ فى ٢٤ الحجة سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م .

(ب) البريد :

اهتم اسماعيل بتنظيم شئون البريد فى السودان ، وذلك لسرعة وصول المكاتبات من والى مصر ، ومن أجل ذلك أعد عددا من الجمال لاستخدامها فى نقل البوستة من السودان الى مصر ، وقد خصص لهذا الغرض طريقين ، يبدأ الأول من الخرطوم الى بربر ، ويستغرق السير فيه ٤ أيام ثم تواصل الجمال المسير بعد ذلك من بربر الى أبى حمد فالعتمور فكرسكو ثم أسوان ، وهناك توزع البوستة على الجهات المرسلة اليها . ويبدأ الطريق الثانى من الخرطوم الى بربر ومنها الى سواكن ، ويستغرق المسير فى هذا الطريق تسعة أيام ، ومن هناك تقوم السفن بنقله الى السويس ثم القـــاهرة (٧٥) .

لم يقتصر نقل البريد على السودان الشمالى ، بل امتد أيضا الى مديرية خط الاستواء ، فكانت الخطابات تصل اليها بانتظام بواسطة قيام مجموعة من الأفراد ، مكونة من جنديين ودليل واحد ، وذلك لنقل البريد وتوصيله الى الجهة المراد ارساله اليها ، وكانت البوستة المراد ارسالها الى منطقة خط الاستواء توضع فى حقيبة من الجلد ، وتغلق باحكام ، ثم يقوم الجنديان بحملها ، ويمشون جميعا فى صورة طابور وكانت حقيبة البريد تحمل بواسطة الشخص الذى يسير فى المنتصف . وفى أغلب الأحيان كانت هذه الرحلة تستغرق ٤٠ يوما أو أكثر . وفى خلال موسم الأمطار ، كانت البوستة توضع فى صندوق من الصاج ، بدلا من وضعها فى الحقيبة الجلدية حتى لاتبلل الخطابات من ماء المطر ، وأما بريد البلاد القريبة فكان يوضع فى داخل علب من الخشب (٧٦) . يبدو أنها كانت تشبه الحقيبة الخشبية او الصندوق الخشبى وكان أفراد مجموعة البريد ، يحملون معهم دفترا يسجلون فيه أسماء المحطات التى يمرون بها . وكان ذلك يتم بالنسبة لبريد البلاد البعيدة .

وفيما بعد تقرر أن تقوم سفن القومبانية العزيزية بنقل البريد من مصر

---

(٧٥) محفظة ٣٨ معية تركى وثيقة ٩٣ فى ١٩ محرم ١٢٨٣ الموافق ١٨٦١م
Repot on the Egyptian provinsec. op. cit. P. 145.

الى السودان ، فى يومى الثلاثاء والخميس من كل اسبوع (٧٧) وكانت هذه السفن تبدأ رحلتها الاسبوعية من السويس مارة بالقصير ، فسواكن فمصوع فأمفيلا Amphila فمصب فتاجورة فزيلع ، فبربرة فزنجبار . وقد أسست على سواحل البحر الأحمر نقط استراتيجية هامة لحماية هذه السفن التى تحمل البريد (٧٨) .

لم يكتف اسماعيل بهذا القدر من العمل على تنشيط حركة نقل البريد بين مصر والسودان ، وبقية البلدان الأفريقية الأخرى بل عمل أيضا على تدعيم نقله ، بالبحث عن الجديد من الطرق ، ففى عام ١٨٧٥ ، أرسل بعثة كشفية مكونة من عدد من الجنود والضباط والأدلة ، وزودت بعدد من الجمال ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين أسيوط ودارفور ، وقد استغرق المسير فى هذه المنطقة ثلاثين يوما على النحو التالى :

٣ يوم مدة المسير بين أسيوط ووادى الجمل .
١ يوم مدة المسير بين وادى الجمل وواحة الخارجة .
٢ يوم مدة المسير بين واحة الخارجة وواحة باريس .
٤ يوم مدة المسير بين واحة باريس ومنطقة الكسابا .
٣ يوم مدة المسير بين منطقة الكسابا وواحة سليمه .
٤ يوم مدة المسير بين واحة سليمة ومنطقة الكوبية .
٥ يوم مدة المسير بين منطقة الكوبية وبئر القطران .
٥ يوم مدة المسير بين بئر القطران وجبل أميدوم .
٣ يوم مدة المسير بين جبل اميدوم وبلدة الفاشر .

وقد تميز المسير فى المسافة الأولى بانه كان لايحتاج الى حمل كميات من المياه ، لأن المياه كانت موجودة بوفرة فى هذا الطريق ، بينما كانت البعثة فى بقية المناطق الأخرى ، تحتاج الى حمل كميات كافية من المياه ، رغم

---

(٧٧) دفتر ١٩٢٢ أوامر كريمة ، وثيقة ١ ص١ فى ٩ ربيع ثان ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٧٨) Dosument, op. cit. No. 1296.

سهولة الحصول عليها ، وذلك بحفر الآبار فى تلك المناطق ، فالمياه الجوفية فيها كانت توجد بالقرب من السطح (٧٩) .

وكانت هذه البعثة قد حققت مهمتها ، وتأكدت من صلاحية استخدام هذا الطريق فى نقل البريد من خلاله ، وربما يرجع السبب فى اختياره الى أنه قصير ومستقيم ، ومن المرجح ايضا أن يكون السبب فى اختياره راجعا الى أنه كان ولازال أقصر الطرق بالنسبة لغرب السودان . وكان قد تقرر أن يوضع بعض الجنود فى بعض الأماكن الغير آمنة لحماية دوريات البريد بين غرب السـودان ومصر .

ويعتبر هذا العمل من جانب مصر عملا حضاريا على جانب كبير من الاهمية لأن تقدم المواصلات فى اى بلد من بلدان العالم ، يعنى فى المقام الأول مدى ماوصلت اليه هذه البلدة من تقدم فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة والنقـــل .

---

(٧٩) Carton. 52. Document. 37. Date. 1875.

الفصل العاشر

علاقات مصر بالحبشة

١ ــ اصول العلاقات :

كانت علاقة مصر بالحبشة طيبة طوال التاريخ ، واستمرت كذلك حتى بعد فتح محمد على للسودان ، وربما يرجع ذلك الى ظروفه العسكرية ، ومن المرجح ايضا أن يكون السبب فى ذلك هو عدم مهاجمته للحبشة أو الاحتكاك بها وبناء على ذلك ظلت سياسة حسن الجوار قائمة بين البلدين ، حتى عصر عباس الأول ، ومن بعده محمد سعيد باشا .

لم يحاول كل من عباس الأول ، وسعيد باشا الأصطدام عسكريا بالحبشة ، سواء من قريب أو من بعيد ، وذلك يرجع الى انشغال كل منهما بشئون مصر الداخلية والى عدم محاولة كل منهما مد نفوذه الى مناطق جديدة من افريقيا . ولم يكن لعباس الأول أية مراسلات مع ملك الحبشة ، بينما حرص سعيد ، على استمرار المراسلات بينه وبين الملك الحبشى حتى لاتسوء العلاقات بينهما ، ويؤدى ذلك بالتالى الى دخولهما فى معارك حربية ضارية ، لا يعلم مداها الا الله .

لم تقتصر العلاقة بين سعيد وملك الحبشة على تبادل الرسائل فحسب ، بل شملت أيضا تبادل الهدايا ، ففى عام ١٨٥٩ م ، أرسل سعيد باشا الى ملك الحبشة ، هدية كانت عبارة عن اربعة مدافع نحاسية ، عيار واحد ونصف بوصة ، بكاتة لوازمها ومائة بندقية كبسول بروحين ، ومائة وستة وعشرون زراع من الحرير ، بالاضافة الى خيمتين مبطنتين بالحرير (١) . ويبدو أن العلاقات المصرية الحبشية فى هذه الفترة ظلت طيبة ومتسمة بحسن الجوار .

---

(١) دفتر ١٨٩٠ أوامر عربى ، وثيقة ٨٨ ص ٢٦ فى ٢١ محرم سنة ١٢٧٥ هـ الموافق ١٨٥٩ م .

ولما تولى اسماعيل باشا حكم مصر ، بدأت قواته تتوسع فى افريقيه حتى شمل نفوذه كل من بحر الغزال ودارفور ، والمديرية الاستوائية الى قرب البحيرات العظمى وسواحل البحر الأحمر الغربية وساحل خليج عدن ، ومقاطعة هرر ، وأخيرا امتد هذا النفوذ الى قسمايو ولكنه لم يستمر طويلا ، وبهذا انحصرت الحبشة داخل النفوذ المصرى ، من الشمال والشرق والغرب ، ولا غرابة اذا ما حاول اسماعيل مد فتوحاته الى داخل الحبشة نفسها ، وازاء هذا شعر الامبراطور الحبشى بالخطر المحدق الذى يحيط ببلاده من جميع الجهات ، ومنذ هذه اللحظة بدأ الخلاف يدب بين الدولتين ، وخاصة عند ما احتل اسماعيل الأراضى المتاخمة لمصوع مثل سنهيت (٢) .

لقد مرت العلاقات المصرية الحبشية اثناء حكم اسماعيل بفترتين ، الأولى منها تعرف بفترة السلم ، وتعرف الثانية بفترة الحرب ، وسوف أتحدث عن كلٍ منهما على حدة .

اولا : فترة السلم :

اتسمت فترة السلم هذه ، بانها كانت طيبة وحسنة ويتضح لنا ذلك من خطاب ملك الحبشة الى اسماعيل الذى يقول فيه ما نصه :

« أبدأ بالتحية واهديك السلام وانى وشعبى بسلام بنعمة من الله ، وان صداقتك الثابتة فى افكارى ، وقلبى لن يتزعزع الا بالموت ، ولا يخفى عليك انا ندين مع الاقباط بعقيدة واحدة ، وبما اننا ابناء كنيسة واحدة ، الا انك لم ترسل للحبشة مطرانها ، لذا نرغب فى صدور أمركم بتكليف غبطة رئيس الأساقفة بايفاد المطران ، كما أود ان يصلنى الرد مع مبعوثى الراس بيرو لدى عودته ، فبمجرد تمهيد الطريق بين مصر والحبشة سأرسل وفدا من قبلى لاستقبال المطران » (٣) .

---

(٢) د . مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) فى القرن ١٩ . المصدر السابق ص ٥٤٢ .

(٣) وثيقة ٦ ملف ٢ دوسيه ٥ فى ١٥ مايو سنة ١٨٦٧ م .

واضح من هذا الخطاب مدى ما كانت عليه علاقة مصر بالحبشة من حسن الجوار والتعاون المستمر ، سواء كان ذلك فى مجال التعاون الدينى ، او فى تنشيط حركة التجارة والبريد بين البلدين ، ولكن لم يستمر هذا الهدوء السلمى بين البلدين مدة طويلة ، بل نجده بعد وقت من الزمن يتغير الى الاسوأ ، واصبحت العلاقة بين البلدين ، يشوبها شيء من التوتر وعدم الاستقرار ، وذلك يرجع الى الاغارات التى كان يقوم بها الأحباش على حدود السودان الشرقى ، مما اضطر اسماعيل ، ان يقرر انشاء عدد من النقط الحصينة على الحدود بين البلدين ، وقد بدأ بانشاء أول نقطة فى منطقة كوفيت وذلك لأنها تتميز بالمناخ المعتدل ، وبالمياه الوفيرة ، وبالموقع الممتاز (٤) .

لم تقف هجمات الأحباش عند هذا الحد ، بل مدوا غاراتهم الى أماكن عديدة من بلاد السودان الشرقى ، ففى عام ١٨٧٢ أغارت جماعة من أشقياء الحبشة على قبائل البازات والباريات القاطنة شرق السودان وسلبوا ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من مواشى وأغنام ، بل وأسروا من السكان حوالى ٦٠٠ شخص (٥) وفى عام ١٨٧٤ اغاروا أيضا على اقليم التاكه ، وقتلوا بعض الجنود المصريين ، الى جانب قتلهم لبعض الوطنيين (٦) فاضطر الخديو ازاء هذا الموقف المتنجر على الحدود بين البلدين أن يرسل قوة حربية ، تحت قيادة آدم بك ، لكى تعسكر فى القلابات وذلك لحماية حدود الحكمدارية من هذه الهجمات المتكررة (٧) .

---

(٤) دفتر ٥٥٨ ص ٢٩ وثيقة ١٠ ، فى ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ١٨٦٦ م .

(٥) مكاتبة ١٨٥٩ — وثيقة ٦٣ فى ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ١٨٧١ م .

(٦) دفتر ١٨٦٤ وثيقة ٦ ص ٩٨ فى ٢٩ صفر سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

(٧) دفتر ١٨٦٤ وثيقة ٤٢ ص ٨١ فى ٦ محرم سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

ولكن على الرغم من كل ذلك ، فان اسماعيل كان حريصا كل الحرص على استمرار علاقة حسن الجوار بينه وبين ملك الحبشة وذلك لسببين أولهما ان المعارك الحربية سوف تعطل مشروعاته التوسعية والعمرانية في افريقيا ، وثانيهما انها سوف تعود على البلدين بالدمار والخراب ، ومن هذا المنطلق ، رغب اسماعيل ، فى تحسين علاقته مع ملك الحبشة ، وعلى اثر ذلك قرر أن يرسل له منزنجر باشا ، وذلك لتصفية الخلافات الموجودة بينهما ولكن منزنجر باشا كان قد أفهم الخديو بأن ملك الحبشة ، سوف لا يستجيب لتحسين العلاقات بينه وبين مصر ، وذلك لأن بعض الدول الأوربية (بريطانيا) كانت تحرضه على مهاجمة حدود مصر ، فاقتنع اسماعيل بوجهة نظر منزنجر ، وأخذ فى تحصين حدوده مع الحبشة ، وذلك بارسال ٤ بلوكات من الأورطة الثالثة لمطاردة الأحباش الذين يغيرون على حدود السودان الشرقى (٨) .

يفهم من هذا أن بريطانيا كانت تعمل على توتر العلاقات بين مصر والحبشة ، فى الوقت الذى كانت تدعو فيه اسماعيل أن يعمل بكل جهده على منع تجارة الرقيق فى افريقيا ، اى أنها كانت غير جادة فى دعوتها الخاصة بالقضاء على تجارة الرقيق ، بل كان هدفها كما هو واضح العمل على زيادة التوتر فى افريقيا ، حتى تجد لها مبررا آخر يساعدها على التدخل فى الشئون الأفريقية ، وهذا ما كانت تصبو اليه ، ويبدو ان الخديو اسماعيل كان على علم بحقيقة موقفها ، لأنه طلب من حكمدار السودان ، أن يقوم بشراء العبيد من الجلابة ، بعيدا عن اعين غردون باشا ، بل وطلب منه أيضا ان يبتعد عن المناطق التى يتواجد بها غردون باشا .

بعد هذا العرض يمكن القول بأن علاقات السلم التى كانت سائدة بين مصر والحبشة منذ زمن بعيد ، قد تدهورت الى حد يدعو الى القلق ، وعدم الارتياح ، وبدأت تظهر فى الأفق علاقات أخرى يشوبها الطابع الحربى .

---

(٨) دفتر ٢٥ عابدين ص ١٢١ فى ١٢ محرم سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣ م .

ثانيـــا ــ الفترة غير السلمية :

الى جانت الأسباب السابقة ، التى ادت الى تدهور العلاقات بين مصر والحبشة ، كانت هناك اسباب اخرى ساعدت على تفاقم وتدهور العلاقات بين الدولتين وزادت من حدتها ، وكان من هذه الأسباب مطالبة ملك الحبشة بميناء على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كى يكون منفذا لبلاده ، ولكن اسماعيل رفض هذا المطلب ، بحجة أن كل الساحل الغربى للبحر الأحمر ملكا لمصر كما انه فى نفس الوقت تابع للسيادة العثمانية والدليل على ذلك واضح ، وخاصة عند ما أرادت بريطانيا ان ترسل حملة لمحاربة ملك الحبشة ، كى تخلص القنصل البريطانى ومن برفقته من السجون الحبشية ، طلبت الاذن من تركيا ، كى تسمح لقواتها بالمرور من منطقة الساحل الغربى للبحر الأحمر . ويعتبر هذا اعترافا صريحا من جانب بريطانيا بأن تركيا هى صاحبة السيادة على تلك الأقاليم الساحلية،واشار اسماعيل الى ان دعوى الملك الحبشى فى السيادة على اى جزء من الساحل ، لا اساس لها من الصـــحة .

وازاء هـــذا ، لم يقف ملك الحبشـــة مكتوف الأيدى ، بل حاول من جانبه أن يستميل بريطانيا ، ولكن دون جدوى ، وذلك لسببين ، اولهما ان بريطانيا كانت مرتبطة مع تركيا بسياسة واحدة ، أى كان لكل منهما الحق فى تأييد الآخر ، فمثلا كانت بريطانيا تؤيد تركيا ضد أى اعتداء يقع عليها من جانب روسيا ، وثانيهما أن بريطانيا كانت أيضا مرتبطة بسياسة واحدة مع اسماعيل الذى أيدها فى موقفها من سياسة منع تجارة الرق فى افريقيا ، فى مقابل أن تعترف له بالسيطرة على السواحل الغربية للبحر الأحمر . (٩)

وفى مقابل هذا الموقف المتشدد من جانب اسماعيل رفض ملك الحبشة التنازل الى مصر ، عن الأراضى المجاورة لنهرى المارب والجاش ، اللذين اعتبرتهما مصر من ضمن الأراضى التابعة للسودان ، لذلك طالبت بضمهما

---

(٩) د . مكى شبيكه : المصدر السابق . ص ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

الى املاكها ، ولكن ملك الحبشة ، لم يعترف بهذه الشرعية ، واصر على رفضه ، وعدم التنازل عن هذه الأقاليم ، زيادة على ذلك فانه ترك قبائله تقوم بالاغارة على الحدود المصرية فى السودان .

ومن ناحية اخرى ، كان الخديو اسماعيل يعلم هذه الحقيقة ، ويعلم أيضا انه لابد من مجابهة الحبشة ، ولكنه قرر قبل أن يبدأ هجومه ان يقوم بانشاء عدد من التحصينات ، فى كل من سواكن ومصوع ، وقد شملت هذه التحصينات ، القلاع والحصون ، وذلك بغرض حماية جنوده ، ففى سواكن انشئت طابية مربعة الشكل احيطت من الخارج بسور وساتر ترابى وخندق ، وقد بلغ عرض هذا الخندق مترين من أعلى ، وزودت كذلك ببرج، يشتمل على ستة مزاغل ، وضع فى اثنين منها مدفعين عياره بوصة ، وقد زودت كذلك بمحل لاقامة الجنود والأسلحة والذخيرة وقد بنى هذا المكان الذى خصص للجنود بالأحجار الشعبية والطين ، وكان من عيوبه انه بنى بدون نوافذ وقد بلغ عدد جنود هذه الطابية ٤٣٢ جنديا ، كانوا جميعا تحت رئاسة يوزباشى وملازم أول وملازم ثانى ، بالاضافة الى ١٧ جنديا من جنود الطوبجية الذين كانوا تحت رئاسة ضابط طوبجى ، وكان الغرض فيما يبدو من وجود هذه القوات ، هو حراسة مبنى المحافظة والقراتولات والدفاع عن السيادة المصرية فى هذه البلاد . (١٠)

وفى مصوع انشىء عدد آخر من الطوابى ، منها طابية راس مضر ، التى كانت معدة لمحاربة السفن الحربية ، التى تحاول مهاجمة مصوع ، زيادة على ذلك فانها كانت تقوم باطلاق مدافعها فى المناسبات القومية ، مثل الأعياد والاحتفالات الرسمية (١١) . والى جانب هذه الطابية ، وجدت طابية طاولون ، التى كانت عبارة عن قلعتى أم كلوا وحرقيقو ، وتقعان على مسافة قريبة من مصوع ، والى جانبهم وجدت طابية جرار ، التى كانت

---

(١٠) محفظة رقم ١١١ سواحل البحر الأحمر .
(١١) نفس المحفظة .

خماسية الشكل ، وقد كانت مهمتها الدفاع عن جزيرة جـرار (١٢) . وانشئت ايضا طابية سـنهيت (١٣) فى قمة جبل ، وعملت بها دروة من الاحجار غير المنظمة ؛ وكانت هـذه الطابية تضم اربعة ابراج مضـلعة الشكل فالاول منها كان له اربعة مزاغل ، والثانى كان له ثلاثة مزاغل ، وكان لكل برج من الأبراج الباقية خمسة مزاغل ، وقد سورت من الخارج بخندقين ، يبدأ الاول منهما من عند البرج الذى يقع فى الشمال الغربى ، وينتهى بالقرب من البرج الواقع فى الجنوب الشرقى ، فكان لهذا الخندق ساتر راسى من التراب بلغ ارتفاعه من الداخل ٢ متر ، ٣٠ سم ، وبلغ ارتفاعه من الخارج حوالى متر ، ٨٠ سم ، وبلغ عرضه ٣ متر ، واما الخندق الثانى فكان يبعد عن الطابية بحوالى ٣٠ مترا وكان يحيطها من جميع الجهات ، وبلغ ارتفاع ساتره من الداخل حوالى ٣ متر وبلغ ارتفاعه من الخارج متر ، ٥٠ سم ، وكان قد وجد بجوار هذا الخندق صهريج للمياه ، بلغت سعته ١٣٣ مترا مكعبا وقد تضمنت هذه الطابية ايضـا شونة للتعيينات ؛ وجبخانتين للذخيرة ؛ احداهما خاصة بالبيادة ، والثانية خاصة بالطوبجية ، كما تضمنت مخزنا وعنبرا للجنود وكانت هذه الطابية محاطة بسور بلغ ارتفاعه ٢ متر ، ٥٠ سم ، وكان هذا السور يضم بداخله بيوت الضباط ، وشونة التعيينات ، وماكينة الميرى ، والاسـبتاليه وبعض التوكولات ، وبئرا للمياه المخصص للشرب واستعمال الجنود ، وكانت طابية سنهيت من المواقع الحربية الجيدة ، التى يصـعب الهجوم عليها ، لأنها كانت تضم حوالى٨٤٤ جندى بيادة ،وكان على راسهم سبعة من اليوزباشية وسبعة من الملازمين الأول وثمانية من الملازمين الثوانى ، وكانت تضـم ايضا ٨٢٠ جنديا من الطوبجية (١٤) وكانوا تحت رئاسـة صاغقول اغاسى ، واثنين من اليوزباشية واثنين من الملازمين اول ، وملازم ثان ، علاوة على

---

(١٢) دفتر ٣٩١٩ ص ١٧١ ، وثيقة ٧ فى ٨ صفر سنة ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠ م .

(١٣) انظر الخريطة رقم ٣ ، ٤ خلف صفحة ٢١١

(١٤) دفتر ٣٩١٩ ، ص ١٦٧ وثيقة ٧ فى ١٠ صفر سنة ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠ م .

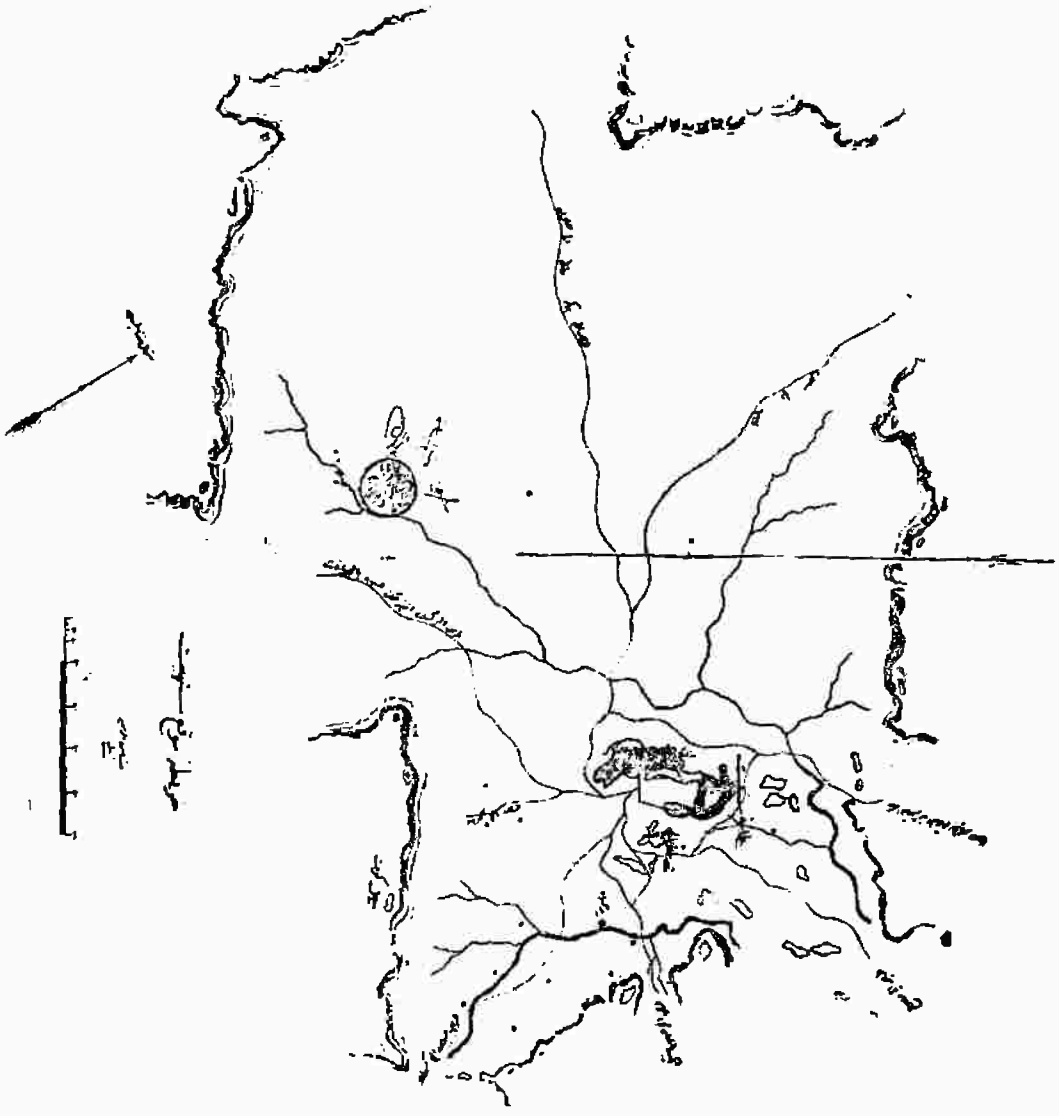

صـــورة الخريطة رقم (٣)

وهى توضح منطـ سنهيت التى عسكرت فيها القوة المصرية عام ١٨٧٦م ،

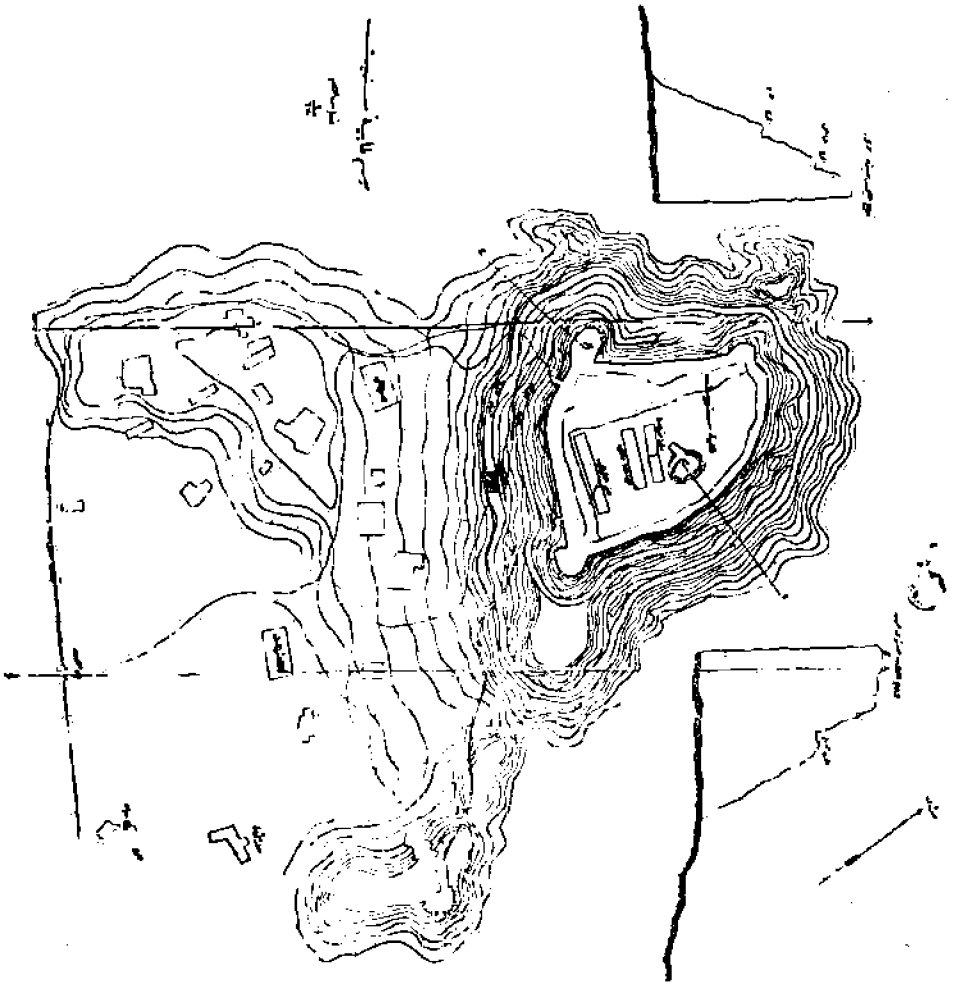

صورة الخريطة رقم (٤) وتمثل طابية سنهيت وهى احدى القلاع الحصينة التى انشأتها مصر فى مصوع عام ١٨٧٥م

ذلك فقد وجد بها ١٠٠ مائة جندى وصف ضابط ، يبدو انهم كانوا كاحتياط (١٥) .

وبعد أن انهى الخديو اسماعيل انشاء هذه الاستحكامات قام بارسال أول حملة عسكرية الى مصوع وقد قدر عددها بحوالى ٣٢٠٠ مقاتل ، وقد تمكنت هذه الحملة من احتلال اقليم الحماسين ، الواقع الى الجنوب من سنهايت (١٦) ، ومن بعدها توجهت الحملة الى جونديت (١٧) وبعد أن تمركزت القوات المصرية فى اماكنها هناك ، أرسل قائدها مندوبا من طرفه ، الى ملك الحبشة يطلب منه التنازل عن الأراضى المتنازع عليها ، حتى يمكن تجنب وقوع أية حرب بين الدولتين ، ولكن دون جدوى ، ولم يكد هذا المندوب يصل الى مقر القيادة ، الا وكانت القوات الحبشية تشن هجومها على القوات المصرية ، التى تمكنت من صد هذا الهجوم ، وقتل خمسة عشر جنديا من القوات الحبشية ، ولكن لم تكتف القوات الحبشية بهذا الهجوم بل شنت هجوما شاملا ، على القوات المصرية المتمركزة فى جونديت ، وتمكنت أثناء هذا الهجوم من محاصرة القوات المصرية فى جونديت وابادتها عن آخرها ، وساعد الاحباش فى ذلك انهم تمكنوا من قطع طرق المواصلات التى تربط القوات المصرية بمراكز القيادة الخلفية وتمكنوا ايضا من منع وصول النجدات الى جونديت ولم ينج من الجنود المصريين من الموت الا عدد قليل جدا تمكنوا من الهرب .

ونتيجة لانتصار الاحباش طلبوا من أفراد الجيش المصرى الهاربين ، الاستسلام وتسليم ما معهم من أسلحة ولكنهم رفضوا ذلك وفى هذا الصدد يقول احد الضباط المصريين الذى قدر الله له الحياة مانصه :

« أما بخصوص تسليم الأسلحة فلا يمكن تسليمها ما دمنا نحن احياء » .

---

(١٥) نفس الدفتر والوثيقة .

(١٦) د . مكى شبيكه : المصدر السابق ص ٥٤٤ .

(١٧) انظر تقرير موقعة جونديت بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا للمؤلف .

وقد اتجهت القوات المصرية المنسحبة الى قياخور ، خوفا على نفسها من مطاردة الأحباش لها وقد خسرت مصر فى هـذه المعركة الوحـدات العسكرية التالية : ـــ

ـــ أربعة عشر بلوكا من جنود السودان .

ـــ سبعة بلوكات من عساكر ٢ جى أورطة .

ـــ واحد بلوك من ١ جى أورطة .

والى جانب ذلك كله فقد قتل كل من الحكمدار والمحافظ والقائمقام ، والمسيو زيجى ، وارندروب واراكيل بك ، وجميع بكباشية الطوبجية ، وجى أورطة ، وجميع ضباط البلوكات ، زيادة على ذلك فان الحبشـة استولت على جميع الأسلحة التى كانت مع القوات المصرية ، التى اشتركت فى هذه الموقعة ، بالاضافة الى ذلك فان الحبشة تمكنت من أسر ١٥ جنديا ، كان من بينهم ، معاون ٢ جى أورطة ، وملازم الطوبجية ، وبلغت خسائر العدو فى هذه الموقعة حوالى ١٥ ألف جندى (١٨) .

ولكن على الرغم مما بذلته القوات المصرية من مجهود فى هذه المعركة ضد القوات الحبشية ، الا انها فشلت فى تحقيق سيطرتها على منابع نهر المارب ، ويمكن تعليل ذلك فى النقاط التالية : ـــ

ـــ صعوبة المسير ، فمن المعروف أن الجنود ساروا على أرجلهم ، وسط الخيران والتلال والأدغال ، وادى هذا بكل تأكيد الى اجهادهم ، لخاصة وانهم ساروا مسافة طويلة ، بينما حملت الأسلحة والمهمات والتعيينات على ظهور الدواب .

ـــ بعد المسافة بين القوات الأمامية فى جونديت ، وبين القوات الخلفية الموجودة فى قياخور على ساحل البحر الأحمر ، فقد ادى ذلك الى تضارب الأنباء عن سير المعركة ، وعدم معرفة الحقائق الصحيحة . (١٩)

---

(١٨) دفتر ٣٤ عابدين ، وارد تلغراف رقم ٢٢٥ فى ٧ شوال ١٢٩٢ الموافق ١٨٧٥ م .

(١٩) نفس الدفتر والوثيقة

ـ عدم وجود خطة دقيقة ، تتضمن الخطوات التكتيكية التى يجب أن تسير على نهجها الحملة ، فيبدو أن الحملة سارت الى مكان الموقعة دون أسس مدروسة ، والدليل على ذلك أن احدى الخرائط الخاصة بهذه الموقعة ، رسمت عن طريق سماع اقوال احد الضباط ، الذين اشتركوا فى هذه الموقعة ، وكان من الأفضل أن ترسم فى نفس مكان الموقعة .

ـ وكان من نتيجة هذه المعركة ، أن انخفضت الروح المعنوية لدى الجنود المصريين ، بينما ارتفعت بين جنود الحبشة ، وخاصة عند ما احتفظ ملك الحبشة برؤوس بعض الضباط القتلى وخاصة الأجانب منهم (٢٠) . وأدى ذلك بالتالى الى انخفاض الروح المعنوية لسكان سواكن ومصوع ، وقد دفع ذلك عمر رشدى الى أن يلتمس من القيادة المصرية ان تسمح بوجود احد الوابورات الحكومية فى ميناء مصوع ، وذلك لاطمئنان الأهالى على مدى قوة الحكومة المصرية ، واخفاء روح الهزيمة (٢١) . وقد رسمت خريطتين لموقعة جونديت نشرت احداها خلف هذه الصفحة *

وقبل أن تنتهى هذه المعركة كان الخديو قد أرسل حملة أخرى فى نفس الشهر وعلى وجه التحديد يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥م ، الى منطقة أوسه، لكى تستولى على منطقة نهر الجاش ، حيث كانت هذه المنطقة من المناطق المتنازع عليها وتكونت هذه الحملة من : ـ

ـ ٤ جى بلوك ، كانوا تحت قيادة اسماعيل افندى معاون المأمورية .

ـ بطارية طوبجية ، مركبة من مدفعين جبلى عيار ٤ وصاروخين حربى من نفس العيار المذكور ، وكانت تحت قيادة الملازم اول يوسف جاهين والذى كان بصحبته ، كاتب الحملة ، والأركان حرب والصيدلى .

---

(٢٠) دفتر ٢٥ عابدين صادر تلغراف رقم ٤٥٥ ص ٦٧ فى غاية شوال سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

(٢١) محفظة ١٠٩ وثيقة ٤٧٢٢ فى غاية شوال سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

* انظر خريطة موقعة جونديت خلف صفحة ٢١٦ وانظر الخريطة الأخرى فى كتاب جهود مصر الكشفية .

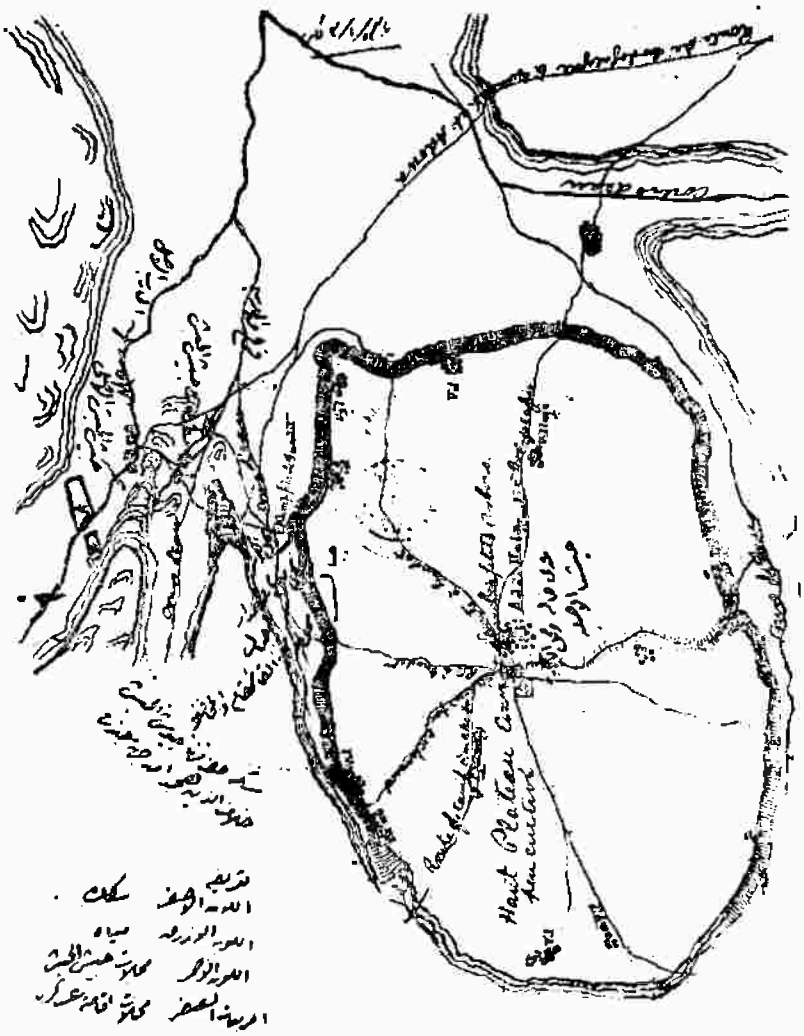

صورة الخريطة رقم (٥)

وتمثل ميدان موقعة جونديت التى وقعت بين القوات المصرية والحبشية عام ١٨٧٥ م .

— ٢ جى بيادة سودان ، وكانت تحت رئاسة دياب أغا يوزباشى ، وكانت هذه القوة قد زودت بكمية من الذخيرة والمهمات والبقسماط .

وبعد أن اكتمل اعداد هذه الحملة ، بدات المسير فى عام ١٨٧٥ من ميناء تاجوره الى ميناء دالوا ، الذى يقع على نفس الشـــاطىء الغربى للبحر الأحمر ، وبعد وصولها الى هذا الميناء الأخير ، نزلت الحملة على الشاطىء . وفى دالوا تدارس القادة ، كيفية الوصول الى أوسه . وقد اتفقوا على الآتى : —

— ضرورة استخدام الطريق المهد الذى يوصل الى أوسه .

— ضرورة تقسيم جمال الحملة المعدة لنقل الأمتعة الى ثلاثة أقسام يخصص القسم الأول منها فى حمل الأشياء الثقيلة ، مثل المدافع والجبخانة ، ويخصص القسم الثانى ، فى حمل البقسماط ، والثـــالث فى حمـــل أمتعة العساكر والضباط والملحقين مثل الحكيم والكاتب والمعاون والمهندس .

وبعد أن انتهت اجراءات الاستعدادات ، بدات الحملة فى المسير ، وكان قد تقرر أن يسير فى الأمام ١٥ جنديا ، تحت رئاسة أحد الضباط ومعهم ستة من الأدلاء المرسلين من قبل شيخ بلدة تاجورة ، وذلك لاستكشاف الطريق ، وقد سارت هذه المجموعة على مسافة ٢٠٠ مترا ، من مقدمة الجيش ، ومن بعدهم سار خمسة عساكر تحت رئاسة أركان الحرب وأحد اليوزباشية ، وكانوا ايضا على مسافة ٢٠٠ مترا من المجموعة الأولى ومن خلف هذه المجموعة وعلى مسافة أربعة أمتار ســـار ضـــابط الطوبجية وعساكره ، ومن خلفهم تقدمت الجمال التى تحمل جبخانة البيادة والخزينة ، والبقسماط والمهمات وعفش الأغوات والسيدات والأولاد ، وعين على يمين الحملة ، ومن مقدمتها الى نهايتها ، ١ جى بلوك مع عدد من ضباطه ، بحيث كان احداها فى المقدمة ، وكان الثانى فى الوسط ، والثالث فى المؤخرة ، وعلى يسار الحملة ، كان يسير ٣ جى بلوك ، الذى كان موازيا الى ١ جى بلوك ، وفى المؤخرة وعلى بعد ١٠٠ متر وجد ملازم على رأس ٢٠ عسكرى ، ومعه بروجى ودليل ، وذلك للمحافظة على من يتأخر من أفراد الحملة ، وكانت دواب هذه الحملة تسير بين قوة الحراسة الموجودة على الجانبين

حتى يسهل الدفاع والمحافظة عليها ، عند ما تتعرض لأى هجوم مفاجىء ، كما اتفق ايضا أن يكون السير لمدة ٤ ساعات فى أول النهار ، بعدها تأخذ الحملة راحة . وهكذا استمرت الحملة فى المسير حتى وصلت الى شاطىء بحيرة اوسه ، بعد أن كانت قد استهلكت كل احتياطى التموين ، الذى كانت تحمله معها فأدى ذلك بالتالى الى تعرض الجنود الى الجوع الشديد والعطش ، وكان من نتيجة ذلك ان اضطر منزنجر الى ذبح البعض من جمال الحملة ، وتوزيع لحمها على الجنود ، وكان قائد الحملة قد قابل الشيخ محمد ولد لعيطه شيخ عربان تلك المنطقة ، والذى وعد منزنجر بانه سوف يقدم له كل ما يطلبه من أجل الحملة وبالفعل طلب منه منزنجر أن يزود الحملة بعدد من الابقار والاغنام ، وكان منزنجر قد دفع له جزءا من اثمانها مقدما ، وتعهد بدفع الجزء الباقى بعد الاستلام ، ولكن هذا الشيخ لم يف بوعده ، بل أخذ يماطل يوما بعد يوم ، لكى تتعرض الحملة لمخاطر أشد صعوبة ، وحتى يتمكن هو من تنفيذ مخططه ، الذى يرمى الى القضاء على الحملة ، ولم يكتف هذا الشيخ بهذه المماطلة بل عمل على تضليل قائدها فقد اقترح عليه أن ينقل القوات الى مكان آخر غير المكان الذى كان منزنجر قد اختاره ، وقد وافق القائد على هذه الفكرة ، ونقل قواته الى المكان الجديد الذى كان من أقوى الأسباب التى ادت الى هزيمة الحملة .

لم تقف مؤامرات هذا الشيخ عند هذا الحد ، بل اوعز الى رجال قبائله بان يهاجموا مؤخرة الحملة ، وقد تمكنوا من قتل أربعة من الجنود وجرح خمسة آخرين ولكن لما علم منزنجر بذلك ، أرسل أحد الضباط وبصحبته بعض الجنود الى مكان الحادث ، وتمكنوا من مطاردة الاعداء وتخليص مؤخرة الحملة ، ولكنهم لم يمهلوا الحملة أن تتنفس الصعداء ، فقد هاجموا جنودها أثناء الليل ، وأخذوهم على حين غرة ، ودارت اثناء الليل بينهم وبين الجنود معركة استمرت حتى مطلع الفجر ، وكان النصر فيها حليف الأحباش ، فقد تمكنوا من القضاء على معظم رجال الحملة ، بما فيهم قائدها ، وعدد كبير من ضباطها ، وقتل من الأحباش حوالى ٥٦٠٠ شخص ، وكان الجنود الذين تبقوا من أفراد الحملة ، قد قرروا العودة مرة ثانية الى تاجورة ، وأثناء عودتهم لاقوا الكثير من الصعاب من قبل

الأحباش ، فكانوا يطاردونهم بصفة مستمرة ليلا ونهارا ، وكانوا ينامون اثناء الليل وهم على شكل دائرة حتى لا يتمكن الأعداء من مهاجمتهم ، وكان من المتبع عندما يعجز أحدهم عن المسير ، يتركوه فى الطريق كى لايتعطلون بسببه عن مواصلة المسير ، وخاصة بعد أن فقدوا كل شىء ، وكانوا قد نجحوا فى الوصول الى تاجورة ، وهناك صرف لكل منهم مبلغ من المال .

وكان أحد ضباط هذه الحملة قد كتب تقريرا شاملا ضمنه خط سير الحملة ، والمشاكل التى واجهتها ، والتى ادت الى هذه النتيجةالسيئة،ويمكن تعليل أسباب هذه الهزيمة الى عدة عوامل نجملها على النحو التالى : ـ

ـ عدم تزويد الحملة بالكمية الكافية من المؤن ، التى يرجع السبب فيها الى اهمال قائدها ، الذى من المحتمل أن يكون قد اعتمد على تزويد الحملة بما ينقصها من مؤن ، من البلاد التى تمر من خلالها .

ـ عدم وضع خطة مدروسة ، تسير الحملة على نهجها ، والدليل على ذلك أن الحملة ، عندما وصلت الى بحيرة الاوسه ، لم يستطع قائدها النجاح فى اختيار الموقع الملائم لها ، بل اعتمد فى ذلك على الشيخ محمد ولد لعيطة ، الذى كان من أهم الأسباب الأساسية فى هزيمة هذه الحملة .

عدم تزويد الحملة بالأسلحة الكافية التى تمكنها من مقاومة الأعداء والدليل على ذلك أنها لم تتمكن من مقاومة البدو الذين استطاعوا باسلحتهم البدائية ، مقاومتها والتصدى لها ، ومنعها من تحقيق أهدافها .

وكان لهزيمة هذه الحملة ، والحملة السابقة (حملة جونديت) اثرهما السيىء على الخديو اسماعيل ، الذى قرر ضرورة الانتقام من الحبشة ، والأخذ بالثأر وذلك بارسال حملة أخرى هى حملة مصوع .

وأما الحملة الثالثة فكان على راسها عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب الذين كانوا جميعا تحت رئاسة الأمير حسن ثانى ابناء الخديو اسماعيل ، ويبدو أن تعيين الأمير حسن قائدا عاما لهذه القوات كان بمثابة العمل على رفع الروح المعنوية لدى الجنود والضباط على السواء . وكان من اضباط الأجانب الجنرال لورنج الذى كان رئيسا لأركان

الحرب ، والميرا لواء فيلد field والميرا لواء ديفيش Deviech والضابط ماكليان MACLEAN والبكباشى لوش Loesh ولامسون Lamson والطبيب ولسون Wilson واليوزباشى بورتر Portor والضابط ارجنس Irgens وغيرهم وكان من الضباط المصريين كل من راتب باشا الذى كان يشغل وظيفة سردار الجيش المصرى فى افريقيا ، وعلى حلمى وابراهيم افندى واحمد راتب افندى واحمد عزمى ، وعبد الرحمن حمدى ، وعبد العال حلمى ، وخسرو عزمى ، وعبد اللطيف افندى ، ومحمد فؤاد ، ومحمد رافت ، وحسين فهمى ، ورجب صادق ، ومصطفى افندى ، ومحمد شاكر ، واحمد عرابى والطبيب حسن حسنى ومحمد على بك (٢٢) .

وقد بلغت قوة هذه الحملة عشرة أورط من عساكر البيادة والسوارى ، وثلاثة بطاريات من الطوبجية ، بالاضافة الى تزويدها بعدد من الصواريخ الحربية ، والى جانب هذه القوة المرسلة الى مصوع ، كانت هناك قوات حربية اخرى ، فى كل من سواكن ومصوع (٢٣) .

وزودت هذه القوة بالمؤن والمهمات والذخائر والدواب من ابل وخيول وبغال ، وذلك لاستخدامها فى نقل الأمتعة والأسلحة ، وقد بلغ عدد هذه الدواب ٢٣١٩ دابة . وقد تم نقل هذه القوة بما معها من أسلحة وامتعة ودواب ، بالسفن المصرية التى كانت تعمل فى البحر الأحمر من السويس حتى باب المندب .

ـ وبعد وصول هذه القوة الى سواكن ومصوع وزعت المهام القتالية على السادة الضباط الآتى أسمائهم بعد : ـ

ـ عثمان بك رفقى قائدا للواء السفرية الأولى .

ـ راشد راغب قائدا للواء السفرية الثانى .

---

(٢٢) Report du Ratip Paeha.

(٢٣) دفتر ٢٥ عابدين صادر تلغراف رقم ٤٢٣ فى ٢٧ شوال ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م .

ـ عثمان بك غالب ميرالاى الآلاى الأول للواء السفرية الأولى .

ـ محمد جبر بك ميرالاى الآلاى الأول للواء السفرية الثانى .

ـ عثمان نجيب بك ميرالاى الآلاى الثانى من لواء السفرية الثانى

ـ اسماعيل صبرى افندى بكباشى بطارية المدفعية الأولى والثانية .

ـ راشد افندى بكباشى اورطة الفرسان الأولى والثانية .

ـ مصطفى افندى بكباشى أورطة الفرسان الثانية .

ـ محمد شاكر افندى بكباشى أورطة الفرسان الثالثة .

ـ احمد عرابى بك مأمور الحملة .

ـ حسن حسنى بك ناظر المستشفى العسكرى .

ـ محمد على بك مفتش الصحة .

ـ خورشيد غالب بك أميرالاى الالاى الثانى ولواء السفرية الأولى (٢٤) .

وقد تمركز هؤلاء بقواتهم فى كل من حطملو وحرقيتو ، وجرار ، وبمرزه وعدرسة وقياخور وقرع ، وقد وضعت فى موقع حطملوا بطاريتان من المدفعية وفى موقع جرار وضع بلوكان من المشاة . وفى جزيرة مصوع وضعت أورطتان من الفرسان ووزعت القوات الأخرى على باقى المواقع الاستراتيجية الهامة . وقد زود كل جندى من جنود الحملة بالأصناف التالية : ـ

ـ بندقية رامنتون بالسونكى .

ـ شنطة ذخيرة بها ٢٠ طلقة .

ـ شنطة جراية بها بقسماط يكفى لمدة خمسة ايام بالاضافة الى تزويده بـ ١٠٠ طلقة احتياط .

ـ عباءة صوف .

ـ معطف (كبود صوف) .

---

(٢٤) Report du Ratip Pasha. op. cit. P. 5.

وزود السادة الضباط بالأشياء التالية بعد : —

— ١٠٠ رطل من الأمتعة بما فى ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط وذلك لرتبة الميرالاى .

— ١٠٠ رطل من الأمتعة بما فى ذلك السلاح والذخيرة والبقسماط لرتبة القـــائمقام .

— ٩٠ رطل من الأمتعة بما فى ذلك السلاح والذخيرة والبقســـماط لرتبة البكباشى .

— ٧٥ رطل من الأمتعة بما فى ذلك السلاح والذخيرة والبقســـماط لرتبة المعـــاون .

— ٧٥ رطل من الأمتعة بما ذلك الســـلاح والذخيرة والبقســـماط لرتبة اليوزباشى .

— ٦٠ رطل من الأمتعة بما فى ذلك الســـلاح والذخيرة والبقســـماط لرتبة الملازم .

وبعد أن استقرت هذه القوات فى مواقعها ، بدأت فى التقدم لاحتلال المواقع الاستراتيجية الهامة ، وكان من هذه المواقع موقع بعرزه ، فهذا الموقع كان يتميز بأن له ثلاثة طرق يصل الأول الى اسمرة ، والثـــانى الى مصوع ، والثالث الى عدرســه ، كما يتميز بوجود عدد من المرتفعات التى يمكن احتلالها لمراقبة تحركات العدو ، زيادة على ذلك فانه غنى بالحشائش والمياه اللازمة لدواب الحملة ، كما يتميز بقربه من مواقع العدو ، وكان من المعتاد قبل انتقال القوات من مكان لآخر ، أن تمهد لها الطرق ، وذلك بقطع الأشجار ، وازاحة الأحجار منها ، وقد خصص لهـــذا الغرض ، مجموعة من الجنود كانت تحت رئاسة ضابط . وقد زودت هذه المجموعة بالبلط والفزم ، والكواريك والمناشير ، علاوة على حمل جنود هذه المجموعة لأسلحتهم .

ومن الأماكن الهامة التى انتقلت اليها القوات بعد بعرزه هى منطقة عدرسة،التى تتميز بعدم صلاحيتها من الناحية العسكرية كموقع استراتيجى وذلك لأنها محاطة بالجبال من جميع الجهات رغم توفر المياه فيها ، لذلك

انتقلت القوات بعد ذلك الى موقع آخر هو قياخور ، وكان هـذا الموقع لا يصـلح من النـاحية العسـكرية ، مع أن الوصول اليه كان سـهلا وميسورا (٢٥) ، ومن هذا الموقع الأخير انتقلت القوات الى قرع (٢٦) ، وفى هذا الموقع عسكر الجنود فوق الروابى العالية ، وقام سكان القبائل فى قرع ، بتقديم فروض الطاعة والولاء الى سردار الجيش المصرى ، وقد تميز هذا الموقع بوفرة مياهه ، وبصلاحيته من الناحية العسكرية ، علاوة على ذلك فانه كان يتسع لحوالى ٥٠ الف جندى

وبعد أن استقرت القوات المصرية فى قرع ، حذرت القيادة المصرية الوطنيين من التعاون مع الملك يوحنا ، وقد تم ذلك عن طريق ارسـال القسيس ديفلو ،الذى كان قسيسا لتلك المنطقة ، وكان يصحبه محمد آدم، وحاكم قرع ، فذهب الجميع الى سوق قرع ، وهناك أمر القسيس بقرع الطبول والفتارات ، وعلى الفور تجمع الناس ، الذين بلغ عددهم زهاء ٨٠٠ شخصا ، كانوا من المسلمين والمسيحيين ، وعندئذ قال القسيس فى جموع الناس ما نصه :

« ان الجيش المصرى قدم الى محاربة الملك يوحنا وذلك لأخذ الثار ، والانتقام منه ، بسبب المعركة السابقة (معركة جونديت) فمن لزم الحياد سواء كان مسلما أو مسيحيا ، فلا عدوان عليه ولا ظلم يحيق به ، وأما من سولت له نفسه ، الاشتراك فى الحرب فى صف الملك ، فعليه يقع العدوان والجور ، فالحكومة المصرية والجيش المصرى يتصفان بالعدل والانصاف ، فهما يشتريان كل ما يحتاجون اليه من السكان بالثمن نقدا ، ولايضر اى فرد ، فعلى كل واحد منكم أن يقوم بأعماله بمنتهى الحرية ، ولا يخاف من اى شىء » .

---

(٢٥) دفتر ٤١ عابدين ، وارد تلغراف رقم ٩٩ ص ١٧ فى ٢ رجب سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م

(٢٦) انظر الخرائط أرقام (٦) ، (٧) الخاصـة بموقع قرع خلف صـفحة ٢٢٤ .

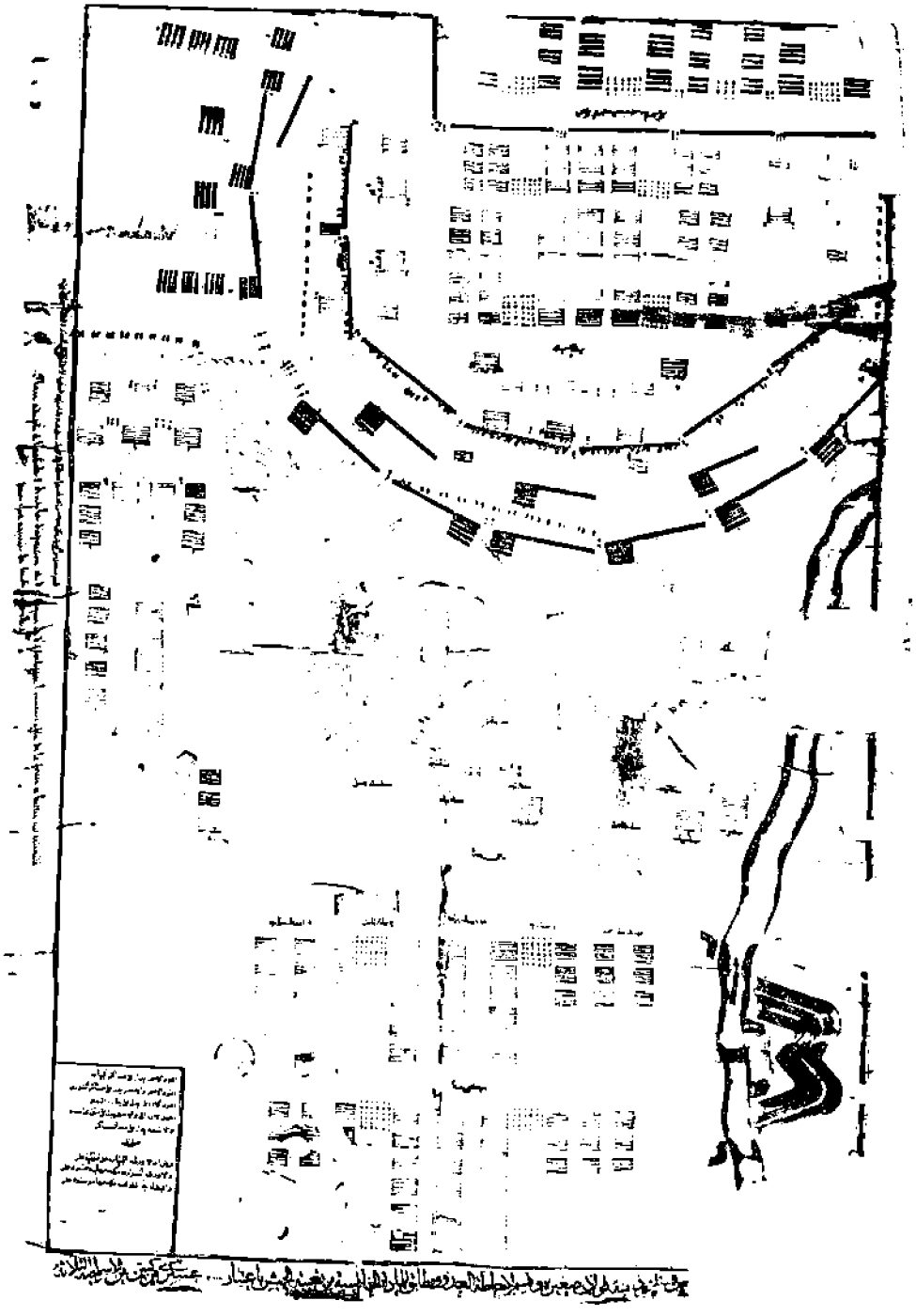

صورة الخريطة رقم (٦)

وتمثل تمركز القوات المصرية والحبشية فى احدى مناطق قرع التابعة لمصوع عام ١٨٧٦ م .

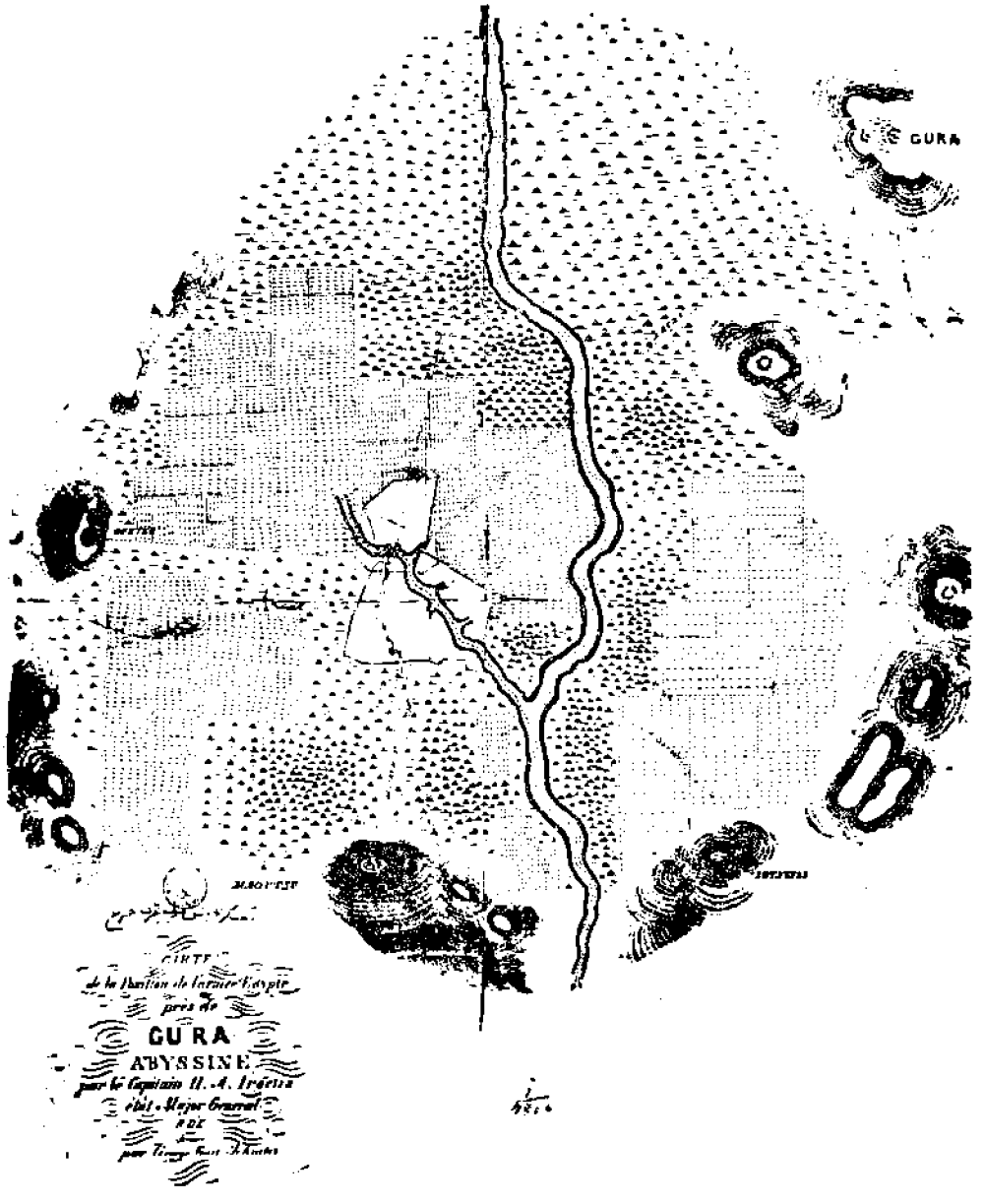

صورة الخريطة رقم (٧)

وتمثل تمركز القوات المصرية فى قرع عام ١٨٧٦ م .

وفى نفس الوقت كان راتب باشا ، قد ذهب الى اقليم الحماسين ، الذى دخل فى حوزة الحكومة الخديوية منذ وقت قريب وفى هذا الصـــدد يقول راتب باشا سردار الجيش المصرى ما نصه :

« ان الحاكم ولد دنكايل قد نال الشرف باللجوء الى الحكومة الخديوية ، التى تعامل عباد الله الذين يستظلون تحت جناحها ، معاملة الوالد الحنون لأبنـــائه » .

وفى تلك الأثناء كان ملك الحبشة ، يتابع تحركات الجيش المصرى من موقع لآخر وذلك بواسطة جواسيســه ، فبمجرد أن علم بدخول الجيش المصرى ترع ، اتجه على رأس جيش كبير الى قياخور ، عندئذ أصدر لورنج باشا رئيس الأركان الأمر الى راتب باشا ، بأن يخرج القوات من مواقعها لكى تصد زحف جيش ملك الحبشة ، وفى هذا الصـــدد قال الكولونيل لورنج ما نصه :

« لنبرز من المتاريس لكى نلاقى العدو وننازله » ولكن راتب باشا ، كان قد اعترض على ذلك بحجة أن هذا الاجراء سوف يعرض القوات المصرية للخطر ، ولكن لورنج أصر على تنفيذ مطلبه بصفته المسئول عن قيادة هذه الحملة ، بينما رأى راتب باشا أن تظل الجنود فى مواقعها ، وعند اقتراب العدو منهم يقومون بمهاجمته . ودلل على رأيه بأن خروجهم سوف يعرضهم للهلاك ، وخاصة وأنهم سيحاربون العدو فى العراء ، وبالفعل وبعد خروج الجنـــود من الخنادق ، منيو بالفشـــل والهزيمة رغم مابذلوه من مقـــاومة عنيفة (٢٧) . وقد بلغت الخسائر المصرية كما يقول التقرير ٢٠٠٠ ألفى قتيل ، بينما بلغت الخسائر الحبشية ما يقرب من ٣٥ ألف بين قتيل وجريح ، ومن المؤكد أن هذا الرقم صحيح ، لأن الجنود المصريين كانوا يستخدمون أسلحة حديثة (رامنتون) بينما كان العدو يستخدم أسلحة قديمة ، الى جانب استخدامه للسيوف والحراب .

---

(٢٧) دفتر ٣٧ عابدين ، وارد تلغراف ، وثيقة ٤٢٦ فى ١٤ صـــفر ســـنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

لم تنته الحرب بين الجيشين عند هذا الحد ، بل شن الأحباش هجوما شاملا على مواقع الجيش المصرى فى قرع ، وقد تمكنوا من هزيمته هذه المرة ، وبلغت جملة خسائره : واحد معاون بيادة ، وثلاث ضباط ، ١٢ جنديا بينما بلغت خسائر العدو ٥ خمسة آلاف قتيل (٢٨) . وتعتبر هذه المعركة هى آخر المعارك التى خاضتها مصر مع الحبشة ، والتى وضعت حدا للنزاع بين الدولتين .

ويمكن تعليل هزيمة الجيش المصرى فى هذه الموقعة الى عدة عوامل منها سوء التخطيط لهذه المعركة ، فمن الملاحظ أن القوات المصرية كانت تنتقل من مكان لاخر دون دراسة مسبقة للموقع الجديد ، الذى تم اختياره وسبب هذا بالتالى اجهاد هذه القوات مع بعثرة جهودها ، وتعرضها للخطر ، زيادة على ذلك فان القادة لم يكونوا على وفاق وخاصة عند اتخاذ أية قرارات ، فالحرب تتطلب قيادة واعية وادراك عميق ، ورأى موحد حتى لاتتضارب الأوامر بين القادة . وقد أدى ذلك بالتالى الى ارباك الجنود ، وعدم تاديتهم للمهام الموكلة اليهم على الوجه الأكمل ، ففى معركة قرع مثلا ، نجد أن لورنج رئيس الأركان قد أصدر أمرا الى القوات المصرية المتحصنة فى مواقعها بالخروج من خنادقها والتصدى لجيش العدو ولكن راتب باشا اعترض على هذا الأمر ، بحجة أنه يجب الا تحارب القوات فى العراء ، فمن الأفضل لها أن تحارب عدوها وهى متحصنة فى خنادقها ، حتى يتوفر لها الحماية والأمن ولكن لورنج اصر على رأيه ولم يأخذ بهذا الرأى ووصل به الأمر الى انه لم يمهل راتب باشا ، ان يحصن قواته فى منطقة قياخور (الموقع الجديد) القريب من قرع ، وأدى هذا بالتالى الى هزيمة الجيش المصرى فى قياخور وقرع .

ومنها أيضا خفض الروح المعنوية لدى أفراد الجيش المصرى وذلك بسبب هزائمهم السابقة أمام الأحباش فبالطبع كان هؤلاء الجنود المصريون ينتابهم الخوف من مواجهة الاحباش خشية الهزيمة مرة أخرى .

ومنها كذلك أن القوات المصرية ، لاقت الكثير من الصعاب وخاصة أن أفرادها كانوا يتقدمون سيرا على الأقدام ، وسط الغابات والأدغال ،

---

(٢٨) Report du Ratip Pasha. op. cit.

والمستنقعات والسهول والوديان ، بالاضافة الى تعرضهم لقسوة المناخ ، الذى يتميز بشدة الحرارة وكثرة الرطوبة ، فهو لا يلائمهم ، لأنهم تعودوا الحياة فى مناخ معتدل ، زيادة على ذلك فانهم واجهوا مشكلة سوء التغذية ، ففى ظل هذه الظروف كان لا يمكن للجنود أن يحصلوا على ما يحتاجون اليه من الغذاء ، بل يبدو انهم عاشوا على ما يحملونه من البقسماط الجاف فقط وهو لا يسمن ولا يغنى من جوع .

ولكن على الرغم من كل هذه الصعاب ، وعلى الرغم من الهزائم التى لحقت بهم ، الا أنهم بحق ضربوا المثل فى المقدرة على تحمل المشاق والصعاب فى كافة الظروف الصعبة .

لم تؤد هذه الحروب الى حل المشاكل الموجودة بين الدولتين ، وعجز كل من الطرفين على فرض ارادته على الاخر ، ونتيجة لفشل القوات المسلحة فى تحقيق هدفها . اذن لم يبق أمام كل من الطرفين سوى التفاوض ، كوسيلة للحصول على اقصى مايمكن الحصول عليه من الطرف الاخر .

وعلى اثر ذلك طلب ملك الحبشة من الأمير حسن نجل الخديو اسماعيل ، وقائد القوات المصرية فى مصوع المفاوضة بشأن الصلح،وارسل له خطابا جاء فيه ما نصه :

« فالأمل أن اردتم المكالمة فى هذه (المفاوضة) اما أن ترسلوا لنا من تعتمدونه ، وتخبروننا به ، لنرسل من طرفنا من نعتمده للمكالمة فيما فيه الاصلاح وعلى الله حسن النجاح ، ونأمل فى ارسال رد جوابنا هذا يوم تاريخه » (٢٩) وقد رد عليه راتب باشا بقوله :

« ان مولانا الخديو آسف جدا على وقوع الحرب بيننا ، وعلى تبدل الصداقة المستديمة بيننا بالعداوة ، وانى اذكركم بأن ولى نعمتنا لا يرضى أصلا عن سفك الدماء بدون سبب ، فقد أوفد قبلا ارندروب بك ، ليتحدث

---

(٢٩) دفتر ٣٧ عابدين وارد تلغراف رقم ٤٥٨ فى ١٥ صفر سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

معكم ويعقد معكم معاهدة صداقة قوية ، ولكنكم لم تقبلوا عقد المعـــاهدة فحدث ما حدث (٣٠) . »

وبعد تبادل الرسائل بين الدولتين : اتفقتا على أن يعين كل منهما مندوبا يمثلهما فى مفاوضات السلام ، وكانت مصر قد عينت من طرفها البكباشى على افندى الروبى ، الذى توجه الى الحبشة ليقوم بالتفاوض هناك نيابة عن مصر . وهناك قابل ليكاموكاس ورقى مندوب الحبشة ، الذى حضر معه الى معسوع لبـــدء المفاوضات ، وبعد أن انتهت المفاوضات بين الدولتين اتفقتا على الآتى :

ـــ اعادة جميع الاسرى المصريين ، الذين أسروا فى الحروب السابقة مع الحبشة .

ـــ الاتفاق على عقد معاهدة للتجارة والبريد بين البلدين بحيث تحصل الحبشة بمقتضاها على نقل البريد والبضـــائع التجارية عبـــر الاقاليم المصرية .

ـــ اعادة الاسلحة التى استولت عليها القوات الحبشية اثناء المعارك ؛ ولكن المندوب الحبشى اعترض على هذا البند ، ولم يوافق عليه بحجة انه من الصعب جمع هذه الاسلحة من أيدى الجنود ؛ لأنهم اعتبـــروا هـــذا السلاح غنيمة لهم ، وقرروا انه فى حالة جمعه منهم ، فسوف يقومون بتدميره وأضاف بأن الملك الحبشى ؛ طلب منه أن يكون هذا السلاح الموجود لدى الجنود الأحباش ، عبارة عن هدية من مصر للحبشة .

ـــ تأجيل مسألة تحديد الحدود بين الدولتين الى وقت آخر (٣١) .

---

(٣٠) دفتر ٢٨ عابدين ، صادر تلغراف تركى فى ١٧ صفر ســـنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

(٣١) محفظة ١٦٠ ـــ عابدين ، فى غرة ربيع اول ســـــنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦ م .

وبعد الانتهاء من هذه المفاوضات التى حدثت بين البلدين ، عرضت نتيجتها على الخديو اسماعيل ، الذى اعترض على عدم ارسال الحبشة للأسلحة التى غنمتها قواتها ، وذكر أن الهدوء لا يتأتى الا بتصفية جميع الخلافات بين البلدين ، وطلب من السردار راتب باشا ؛ أن ينقل الى ملك الحبشة ضرورة العمل من جانبه على ارجاع هذه الأسلحة ، وقام السردار بارسال خطاب الى ملك الحبشة جاء فيه ما نصه :

« ان جمع الأسلحة من أيدى العساكر ، أمر يسير جدا بالنسبة الى ملك ذى نفوذ واقتدار مثل الملك يوحنا ؛ فلو عرضنا على مولانا الخديو أن الملك يوحنا لم يستطع جمع هذه الأسلحة من أيدى عساكره ، لما صدق ذلك ، وبناء على ذلك ينتظر من الملك يوحنا قبل كل شيء رد جميع الأسلحة الموجودة لدى جيشه » (٣٢) .

ويبدو أن بنود هذا الاتفاق لم توضع موضع التنفيذ مما اضطر الدولتين الى عقد اتفاق آخر ، تلخصت بنوده فى النقاط التالية : ـ

أولا ـ انهاء حالة الحرب بين الطرفين ؛ بحيث لاتقوم مصر بمحاربة الحبشة ولاتقوم الحبشة بمحاربة مصر .

ثانيا ـ عودة الحدود بين مصر والحبشة ، الى ما كانت عليه من قبل وقوع الحرب بين الدولتين .

ثالثا ـ تنشيط حركة التجارة بين الدولتين ، سواء كان ذلك فى الصادرات أو الواردات .

رابعا ـ على الحبشة أن تعفوا عن جميع الاشخاص الذين فروا منها أثناء الحرب والتجأوا الى مصر .

خامسا ـ تتكفل الحكومة الخديوية ، بمنع عساكر ولد ميخائل (وهو من رعايا الحبشة) من مهاجمة الحدود الحبشية .

---

(٣٢) دفتر ٨ عابدين تلغراف رقم ١٣٧ فى ٢ ربيع أول سنة ١٢٩٣ هـ الموافق سنة ١٨٧٦م .

سادسا ــ اذا رغب ملك الحبشة فى ارسال مندوب من طرفه الى مصوع للاقامة بها للاشراف على رعايا حكومته هناك فلا مانع من ذلك .

سابعا ــ اذا أرسلت الحبشة بوستة ، أو اى فرد من أبنائها الى اى جهة،أو الى اىدولة،فيجب عدم التعرض له من جانب الحكومة الخديوية ، وكذلك اذا أرسلت مصر من طرفها مندوبا يحمل بوستة الى اى جهة من جهات الحبشة ، فيجب عدم التعرض من جانب حكومة الحبشة . كما لايتعرض أحد للبوستة التى يحملها .

ثامنا ــ عدم السماح بمرور الاسلحة ، وسائر المهمات الحربية الى الحبشة ، باستثناء مرور قدر معين ، من هذه الاسلحة ولوازمها والتى تشترى لحساب الملك وتقدر كميتها بحوالى ٥٠ رطلا من البارود ، ١٠ بنادق ، ٥٠٠٠ آلاف كبسولة ، واشترط كذلك أن يتم ذلك مرة واحدة فى العام .

تاسعا ــ السماح بالسفر لاى فرد من ابناء الحبشة الى اى جهة خارج بلاده ، كفرنسا وانجلترا مثلا ، مادام يقوم بدفع مصاريف نقله فى الوابورات المصرية التى يركبها . كما يجب عدم منع اى شخص يريد زيارة الحبشـــــة (٣٣) .

من قراءة بنود هذا الاتفاق نجد انه لم يذكر اى شىء عن اعادة الأسلحة التى كانت بحوزة الحبشة ، رغم تعدد بنود هذا الاتفاق ، فيبدو ان ملك الحبشـــة كان جادا فى تمســـكه بها .

ولكن على الرغم مما جاء فى بنود الاتفاق الثانى ، الا ان مصر لم توافق عليه ، مما اضطر الدولتين الى عقد اتفاق ثالث بينهما ، وقد مثل مصر فى هذا الاتفاق ، غردون باشا ، وقد جاء فى بنوده الاتى بعد :

اولا ــ ان جهة باغوص وجهة لنسع الجنوبية ، وحلحل والماريات تستمر فى حوزة الحكومة الخديوية ، وكذلك أميديب وما حولها .

---

(٣٣) دفتر ٤٦ عابدين ، وارد تلغراف ، رقم ٣٤ ص٨ فى ٣١ مارس سـنة ١٨٧٧م .

ثانيا ــ على الخديو المعظم ، أن يأذن لملك الحبشة بتعيين مندوب من طرفه لاقامته فى مصوع ؛ بحيث يكون بمثابة قنصلا ممثلا لبلاده .

ثالثا ــ يقوم الخديو اسماعيل ، بتعيين مطران للحبشة .

رابعا ــ كل من يرغب من الاحباش فى التوجه الى القدس الشريف ، يرخص له بالسفر الى هناك ، على شرط أن يحصل على موافقة حكومته، وعلى أن تقوم مصر بمنحه كافة التسهيلات .

خامسا ــ يمنع تصدير الأسلحة والبارود الى أعداء الملك يوحنا .

سادسا ــ جميع العساكر المأسورين والموجودين بالحبشة يصير ارجاعهم الى مصر (٣٤) .

يبدو أن هذا الاتفاق لم يوضع موضع التنفيذ ، والدليل على ذلك أن غردون باشا كان قد ذهب الى الحبشة؛وذلك لمقابلة الملك يوحنا ؛ وهناك قال له الملك ما نصه :

« انه اذا كان القصد من هذه الزيارة المحبة معى (ملك الحبشة) فتعطى الى جهة القلابات والقاش ، بالاضافة الى مليونين من الجنيهات المصرية ، وانه فى حالة حصولى على مصوع وعلى مطران فاننى سوف أتنازل عن النقود ، كما يجوز لى أن أطلب دنقلة وسنار وبربر والخرطوم وبلاد النوبة ، وكذلك جهة هرر التى تتبعنى من قبل » (٣٥) .

من المؤكد أن هذه الاتفاقيات لم تنجح ولم توضع موضع التنفيذ ، نظرا لموقف ملك الحبشة المتشدد ، حيث وصل به الغرور الى أن يطالب فى أحقية

---

(٣٤) دفتر ٥٢ عابدين وارد تلغراف صورة المكاتبة رقم ١٨ فى ٦ محرم سنة ١٢٩٦ هـ الموافق ١٨٧٨م .

(٣٥) دفتر ٥٤ عابدين ، وارد تلغراف رقم ٧١٧ فى ١٩ القعدة سنة ١٢٩٦ الموافق ١٨٧٨م .

بملكيته لبربر وشندى ، والخرطوم وهى اقاليم سودانية ، لاصلة لها بالحبشة. سواء كان ذلك فى الماضى القديم أو فى الحاضر ، ويمكن ارجاع هذه الغطرسة الى انتصاراته فى الحروب السابقة التى وقعت بينه وبين مصر .

وقد استمر هذا الوضع الى ما هو عليه ، حتى عزل الخديو اسماعيل من حكم مصر وعين بدلا منه ، الخديو توفيق ، وفى تلك الأثناء ارسل ملك الحبشة ممثلا خاصا من طرفه الى القاهرة وذلك لمقابلة الخديو الجديد ، حيث طلب منه ضرورة العمل على تعديل الحدود بين السودان والحبشة ، بحيث يتضمن التعديل الجديد ، حصول الحبشة على ميناء مصوع والقرى التابعة لها ، وقلعة البجه (٣٦) ولكن يبدو أن الخديو توفيق ، لم يوافقه على مطالبة واستمر الوضع هكذا . حتى قيام الثورة المهدية ، وصدور الأمر بانسحاب الجيش المصرى من السودان ومن البلدان الأفريقية الأخرى . ومن هنا وجدت الحبشة الفرصة السانحة امامها لتحقيق ماكانت تصبو الى تحقيقه فى الماضى .

ومن الجدير بالذكر أن نشير الى عدد القوات المصرية التى كانت متواجدة فى ذلك الوقت فى البلدان السودانية خاصة والأفريقية عامة ، فنلاحظ ان هذه القوات كانت موزعة على هذه البلدان بنسب متباينة ، فكان حجمها يختلف من بلد لأخرى ، فنجد مثلا أن عدد القوات المصرية التى كانت ترابط فى منطقة بحر الغزال يبلغ ٤٠٠٠ جندى ، يبدو أن السبب فى ذلك يرجع الى اهمية هذه المنطقة لانها كانت من المناطق المشهورة بتجارة الرقيق ، وثانيا أنها كانت وكرا لاعداء الحكمدارية من أمثال الزبير باشا رحمه .

ويلى اقليم بحر الغزال فى الأهمية اقليم هرر الذى بلغ عدد قواته العسكرية ٢٧٥٤ جنديا ، فهذا الاقليم ملاصق للحبشة التى كانت تعمل بكل جهدها على القضاء على النفوذ المصرى فى أفريقيا الشرقية ، وكانت مصر تعلم هذه الحقيقة ، لذلك نجدها تزيد من تواجدها العسكرى فى اقليم هرر .

---

(٣٦) Document. N. 336 Cairo, Septembre, 6, 1879. Agency and consulate general of U.S.A. in Egypt.

ومن بعد هرر يأتى اقليم كردفان ودارفور ، فيبلغ عدد قوات كردفان ١٩٥٠ جنديا ويبلغ عدد جنود الفاشر ١٥٠٠ جندى وداره والكلكل ٢٠٠٠ جندى ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن منطقة غرب السودان كانت قد شهدت معركتين ، اولهما كانت عام ١٨٢٠م بين قوات البك الدفتردار وقوات سلطان دارفور من ناحية اخرى ، وكانت المعركة الثانية عندما قامت مصر بضم اقليم دارفور للسيادة المصرية .

ويلى اقليم غرب السودان فى الأهمية اقليم خط الاستواء ، فبلغ عدد قواته العسكرية ١٧٧٣ جنديا ، وذلك لاتساع مساحته ، ومن ناحية اخرى انه كان مركزا لارسال الحملات الكشفية الى المناطق المجاورة له ، بالاضافة الى مقاومة تجارة الرقيق فى هذه البلاد .

ومن بعد خط الاستواء يأتى اقليم أو مديرية الخرطوم التى يبلغ عدد قواتها ١٥٥٦جنديا،وربما سببذلكيرجع الى أن الخرطومكانت عاصمة للبلاد السودانية ، ومن ناحية اخرى كان يوجد بها مركز القيادة وثكنات الجيش ، فهى بذلك تعتبر مستودعا للجند ، اى منها تخرج الجنود لتوزع على باقى المديريات .

ويلى الخرطوم فى الأهمية ايضا مديرية التاكة التى يبلغ عدد قواتها العسكرية ١٤١٨ جنديا ، ويبدو أن السبب فى وجود هذه القوة العسكرية الضخمة ، يرجع الى تمرد جنود اللواء الرابع عام ١٨٦٥م والذى نجم عنه ثورة كادت أن تقضى على النفوذ المصرى فى السودان ؛ ويمكن مراجعة التقرير الخاص بموقعة التاكة فى كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر ، فى الفصل الخاص بالمعارك الحربية للمؤلف .

وفيما عدا ذلك فان عدد القوات المصرية العسكرية فى البلدان الاخرى ، كان قليلا ، فيفهم من ذلك أن توزيع القوات المصرية كان يراعى فيه اهمية المديرية أو البلدة ، بمعنى أن المديرية التى تكون واسعة المساحة ، تزود بعدد كبير من الجند،كماتوضح عاليه ، ويمكن مراجعة البيان الخاص بذلك، خلف هذه الصفحة ٢٣٥ .

يوميـــه

عن « العسكرية الموجودة بجهات السودان والسواحل » وذلك عن المعلوم من اليوميات الواردة لقلم عسكريه لغاية شهر يونية سنة ١٨٧٩

عسكرية جهادية	عسكرية باشبوزق	يكون عسكرية	اسماء الجهات
١٢٨٦	.٢٨٠	١٥٦٦	مديرية الخرطوم
.٢١٥	...	.٢١٥	القضـــارف
.٢٣٦	١٤٩	.٣٨٥	مديرية بربر
٢١٩	.٥٣	٢٧٢	مديرية دنقلا
٦٧٠	٢٠٨	٨٧٨	مديرية سنار
٣١٠	...	٣١٠	ادارة فيزوغلى
٤٣٢	.٥٣	٤٨٥	محافظة سواكن
٥٧٩	.٥٦	٦٣٥	محافظة مصوع
٢٣٢	..٤	٢٣٦	سنهيت
١٢٦٨	١٥٠	١٤١٨	مديرية التاكا
.٥٩٠	...	.٥٩٠	القلابات
٦٤٥	...	٦٤٥	أمديب
٧٨٢	١٦٩	٩٥١	مديرية فشودة
.٧٩	...	١٩	السكة الحديد السودانية
٢٥٢٠	٢٣٤	٢٧٥٤	هرر والسواحل
٤٤٩	...	٤٤٩	بربرة وزيلع ونجره
١٤٣٧	٣٣٩	١٧٧٣	خط الاشنوى
١٥٠٠	...	١٥٠٠	الفاشر
١٠٠٠	...	١٠٠٠	داره
١٠٠٠	...	١٠٠٠	كلكل
١٧٠٠	٢٥٠	١٩٥٠	كردفان
١٠٠٠	٣٠٠٠	٤٠٠٠	بحر الغـــزال
١٨١٤٩	٤٩٤٢	٢٣٠٩١	يكون

على الوجه المشروح يعتمد ذلك ، ٨ شعبان سنة ١٢٩٩

فريق عسكرية

عموم الســـودان

بحث للعلوم بالحكمدارية

الفصل الحادى عشر

علاقة مصر ببعض الدول الأوربية

لم يكن للدول الأوربية اى نشاط استعمارى فى افريقيا الشرقية قبل امتداد الوجود المصرى اليها ، باستثناء بريطانيا التى كان لها علاقات صداقة مع سلطان زنجار ، ولكن بعد امتداد الوجود المصرى الى هذه المنطقة ، بدات بعض الدول الأوربية (مثل بريطانيا وايطاليا وفرنسا) فى التنافس على استعمار بعض المناطق الاستراتيجية منها ، وقد زاد هذا التنافس بين هذه الدول بعد فتح قناة السويس والكشف عن منابع النيل وبعض الأجزاء الداخلية الأخرى من افريقيا . وكانت هذه الدول قد عرفت مدى امكانية افريقيا الاقتصادية ، ربما عن طريق بعض الرحالة من أمثال زوشنتى بريشتى ، الذى قال فى هذا الصدد ما نصـــــه : ــ

« توجد موارد اقتصادية لاحصر لها فى افريقيا الوسطى ، وهى متروكة ولم يفكر احد فيها حتى يومنا هذا ، وذلك بسبب قلة الأيدى العاملة والخبرة الفنية وطلب زوشنتى من الجمعية الجغرافية البريطانية أن تسرع بمناشدة الحكومات الأوربية والعلماء فيها ، كى يوحدوا جهودهم لاستعمار هذه المنطقة التى تنتشر المجاعة بين سكانها » (١) ويرجع ذلك فى المقام الأول الى عدم استغلال مواردها الاقتصادية . وبعد هذا النداء الذى أطلقه زوشنتى بادرت الدول الأوربية ، وعلى رأسها بريطانيا باحتلال أجزاء كبيرة من افريقيا .

---

(١) Zuecchinetti, M.P.V. : mes voyages au Bahr El-Gazal et Noba. Bul. Soc. Kh. Geog. P. 51.

١ ــ بريطانيا :

كانت علاقة مصر ببريطانيا فى الفترة السابقة على عصر اسماعيل تتسم بالود والصداقة ، ويرجع ذلك الى أن بريطانيا لم تكن قد تدخلت بعد فى شئون مصر الداخلية ، واستمرت هذه العلاقة هكذا ، حتى تولى اسماعيل حكم مصر؛حيث حرص من جانبه على توطيد هذه العلاقة . وانضح ذلك جليا عندما سمح للقوات البريطانية بالمرور من املاكه فى أفريقيا ، لمحاربة ملك الحبشة ، وتخليص أفراد القنصلية الانجليزية الموجودين فى الحبشة من السجن ، وكان اسماعيل قد أمر حكمدار السودان ان يعامل الجنود الانجليز معاملة حسنة ، وخاصة أثناء مرورهم من الأراضى المصرية ، بالاضافة الى انه سمح للقوات البريطانية أن تنشىء خطا تلغرافيا يربط بين سواكن ومصوع ، بحيث تتولى هذه القوات حراسته ، وفى نفس الوقت طلب من شيوخ القبائل التى يمر الخط من بلادهم المحافظة عليه وعدم اتلافه ، بل طلب منهم ايضا المساهمة فى حراسته (٢) .

زيادة على ذلك فانه منح هذه القوات كميات من الأخشاب كى تستخدمها فى بناء ما يلزمهم من مخازن فى كل من مصوع وزولا ، وذلك لتحفظ فيها المهمات والذخائر والأمتعة الخاصة بها (٣) وكان أيضا قد أمر بوضع السفن المصرية التى تعمل فى البحر الأحمر تحت تصرف قائد هذه القوات (٤) . وواصل اسماعيل العمل من جانبه على استمرار العلاقات الطيبة بين الدولتين ، والدليل على ذلك انه بمجرد أن علم بعدم اهتمام محافظ مصوع بقائد الحملة الانجليزية والتحدث معه بلهجة شديدة ، أمر بفصله من منصبه،

---

(٢) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٥٦٠ معية تركى ؛ وثيقة ٢ ص٤٩ فى ٦ جماد اول سنة ١٢٨٤هـ الموافق ١٨٦٧م .

(٣) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٥٩٠ معية تركى ؛ وثيقة ١٣ ص ٨٨ فى ٦ جماد اول سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م .

(٤) محافظ ابحاث السودان ــ دفتر ٥٧٣ معية تركى وثيقة ٢ ص٢٦ فى ١ جماد ثان سنة ١٢٨٤هـ الموافق ١٨٦٧م .

وترحيله الى مصر ، قبل أن يعين مديرا بدلا منه ، وفى نفس الوقت أمر عبد القادر باشا محافظ سواحل البحر الأحمر أن يعتذر نيابة عنه للقائد البريطانى ، وقد جاء فى هذا الاعتذار ما نصـــه :

«ياجناب القائد أن مولانا فخامة الخديوالأعظم قد عزل محافظ مصوع من وظيفته ، بمجرد أن وصل لعلمه خبر اعماله القبيحة ، وطلب منى ايضا أن ابذل قصارى جهدى فى المحافظة على خط التلغراف وأن انبه على مشايخ العرب بعدم التجاسر على قطع اسلاكه » (٥) زيادة على ذلك فانه لما علم بوفاة احد الضباط الانجليز الذى كان ضمن هذه القوة البريطانية ، أمر بأن تشيع جنازته رسميا فى الاسكندرية ، وقد اشترك فيها عدد من كبار الشخصيات المصرية الذين كان من بينهم محافظ المدينة ، وناظر البحرية ، وعدد كبير من قواد الجيش (٦) .

وبعد أن انتهت الحرب بين الدولتين بانتصار بريطانيا على الحبشة ، قررت الحكومة الانجليزية عودةقواتها الى أرض الوطن،وبيع كافة الأدوات والمهمات والدواب التى استخدمتها هذه الحملة فى أثناء الحرب الى الحكومة المصرية ، بالاضافة الى بيع المخازن التى كانت الحملة قد أنشأتها فى مصوع ، وقد وافق اسماعيل على شراء هذه الأشياء جميعها (٧) .

ويتضح من هذا العرض الموجز أن العلاقات المصرية البريطانية كانت على ما يرام ، منذ تولى اسماعيل حكم مصر ، ولكنها بدأت بعد ذلك فى التدهور والانهيار ، وخاصة عندما بدأت مصر فى مد نفوذها الى جميع سواحل البحر

---

(٥) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٥٧٣ معية تركى ، وثيقة ٢٨ فى ٦ شـــوال سنة ١٢٨٤هـ الموافق ١٨٦٧م .

(٦) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٥ عابدين صادر تلغراف رقم ٥٢٠ فى ٢٠ شعبان سنة ١٢٨٤هـ الموافق ١٨٦٧م .

(٧) محافظ أبحاث السودان ــ دفتر ٥٧٣ صادر المعية ، وثيقة ٤١ فى ٢٥ محرم سنة ١٢٨٥هـ الموافق ١٨٦٨م .

الأحمر الغربية ، وكان من مظاهر هذا التدهور الذى بدا يظهر فى الافق بوضوح ، معارضة « راسل » الحاكم الانجليزى فى عدن ، لسياسة التوسع المصرى فى افريقيا الشرقية والتى اتبعها اسماعيل الذى ضحى فى سبيل تحقيقها بالكثير من العتاد والأموال والجنود .

ولم تكترث مصر لهذه المعارضة فى بادىء الأمر وكان كل مافعلته ، ان قام وزير خارجيتها ، بابلاغ قنصل بريطانيا فى القاهرة بالبيان التالى :

« ان سواحل البحر الأحمر الغربية ليست مستقلة ، بل انها لاتزال تحت السيادة العثمانية ، وهى ضمن البلاد التى تنازل عنها السلطان العثمانى للحكومة المصرية ، وذلك بمقتضى الفرمان الذى تنازلت فيه عن سواكن ومصوع وملحقاتهما » وكان قد اكد ذلك فى الفرمان الذى صدر فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ والخاص بتعديل قاعدة توارث الولاية المصرية ، وقد جاء فيه ما نصـــه :

« حيث أن مصر هى مقاطعه من مقاطعات مملكتى الأكثر اهمية ، وحيث مابرحت تبرهن حتى الآن على امانتك وخلوصك نحو ذاتى الملوكية ، ولما كان مرادى ان أظهر لك بنوع سنى ساطع ، عظيم ثقتى التامة بك ، قررت بناء على هذا جميعه ، ان تنتقل ولاية مصر من الآن فصاعدا مع ما هو تابع اليها من الأراضى وكامل ملحقاتها وقائمقامتى سواكن ومصوع الى اكبر اولادك » (٨) .

ويضيف وزير الخارجية المصرى فى حديثه أن الحكومة المصرية كانت لاتزال تدفع الجزية المقررة عليها للدولة العثمانية لكى تؤكد تمسكها بهذه الممتلكات فعينت عليها عددا من المحافظين ، وكان من بينهم أحمد ممتاز — باشا ، ومنزنجر باشا الذى انتهت حياته نهاية محزنة فى موقعة الأوسه عام

---

(٨) رئاسة مجلس الوزراء (السودان) فرمان لسمو اسماعيل باشا تعدلت فيه قاعدة توارث الولاية المصرية فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦م الموافق ١٣ محرم ســـنة ١٢٨٣هـ .

١٨٧٥م (٩) ولكن بريطانيا لم تقتنع بتبريرات مصر ، بل اعتبرت الوجود المصرى فى السواحل الغربية للبحر الأحمر ، تهديدا لأمنها فى هذه المنطقة ، وخطرا يتهدد وجودها فى عدن والمحيط الهندى ، وفى هذا الصدد كتب المستر وود Wood قنصل بريطانيا فى عدن الى السير اليوت Sir. Eliot سفير بريطانيا فى الاستانة يخبره بما نصـــــه :

« ان التنازل عن ميناءى زيلع وبربرة يجعلان سواحل البحر الأحمر الغربية فى قبضـــــة مصر » (١٠) .

واضح من هذه العبارة مدى حرص بريطانيا على عدم الســـماح لمصر بالاستيلاء على سواحل البحر الأحمر الغربية ، لأن ذلك فيما يبدو كان يتعارض مع مصالحها العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية ، ولكن مصر لم تكترث فى بادىء الأمر بهذه الاعتراضات البريطانية ، بل انها واصلت مد نفوذها الى شرق افريقيا . وبمجرد وصول قواتها الى بلدتى براوة وقسمايو بادرت بريطانيا باستخدام كل وسائل الضغط لاجبار مصر على سحب قواتها من هذه المنطقة ، مع أن سكانها ، كانوا قد رحبوا بالقوة المصرية بمجرد نزول افرادها الى بلادهم وخاصة سكان براوة الذين لم يكتفوا بالترحيب بأفراد الحملة بل نجـــدهم يقدمون التماسا موقعا عليه من جميع مشايخهم يطلبون فيه الرغبة فى خضوعهم للسيادة المصرية ، كى تحميهم من الاغارات التى يتعرضون لها ، من جانب القبائل الداخلية ، لأن ســـلطان زنجبار كان قد فشل فى حمايتهم من اغارات هذه القبائل ، مع انهم كانوا يدفعون له الضرائب المقررة عليهم (١١) .

لم تترك بريطانيا الوجود المصرى فى شرق افريقيا يتوسع بل كلفت

---

(٩) د . محمد السيد رجب حراز : أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوربى فى القرن ١٩ صص ١٩٢ — ١٩٣ .

(١٠) المصـــــدر الســـابق .

(١١) انظر صورة الالتماس بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر ، للمؤلف .

المستر كيرك Kirk قنصلها فى زنجبار بالقيام على رأس قوة عسكرية بحرية للوقوف على تحركات القوة المصرية فى منطقة نهر الجب ، وبعد وصول هذه القوة الى براوة ، حاول كيرك ومن معه من الجنود النزول على الشاطىء الصومالى ولكن القوة المصرية لم تمكنه من ذلك وبعد محاولات ودية من جانب كيرك سمح له قائد القوة المصرية بالنزول على الشاطىء على شرط الا يصطحب معه اى عدد من الجنود . وبعد أن أنهى كيرك مهمته كتب الى وزارة الخارجية البريطانية يقول ما نصه :

« ان التدخل المصرى فى شرق أفريقيا يهدد نفوذ سلطان زنجبار » .

من الواضح أن بريطانيا لم تدافع عن نفوذ سلطان زنجبار فى شرق أفريقيا ، بقدر ماكانت تدافع عن وجودها فى هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة من العالم ، فقد بدأت منذ تلك اللحظة فى تحريض هذا السلطان ، لكى يناوش القوات المصرية بكل الوسائل حتى يجبرها على الانسحاب من هذه المنطقة مع أن مصر كانت تهدف من وراء ذلك الى نشر الأمن والاستقرار والمدنية فيها بالاضافة الى القضاء على الجهل والتخلف ثم العمل على النهوض بها فى كافة المجالات ، سواء كانت الاجتماعية منها او الاقتصادية او السياسية ، زيادة على ذلك فانها كانت تريد أن تربط بين المنطقة الاستوائية من ناحية والساحل الغربى للمحيط الهندى من ناحية اخرى .

بدأت بريطانيا تتحرش بالوجود المصرى لأتفه الأسباب فعندما علمت بأسر مصر لأحد الضباط البريطانيين الذى كان يعمل فى خدمة الحبشة أرسلت سفينة حربية لفك أسر هذا الضابط الذى كان يدعى كركم Kurkum ولكى تتجنب مصر الصدام مع بريطانيا وافقت على فك أسر هذا الضابط على شرط الا يعود مرة ثانية الى الخدمة فى الجيش الحبشى (١٢) .

أدت سياسة الضغط التى اتبعتها بريطانيا ضد مصر الى اضطرار الأخيرة الى سحب قواتها من شرق أفريقيا فى ٢٠ يناير عام ١٨٧٦م لأنها كانت لاتريد اغضاب بريطانيا والدخول معها فى صدام مسلح ، لأن قواتها أصبحت

---

(١٢) محافظ ابحاث السودان ـ دفتر ٣١٧ عابدين ، وارد طغراف ، وثيقة ٤٤٢ فى ٣١ مارس سنة ١٨٧٦م .

غير قادرة على حماية هذه المساحات الشاسعة من افريقيا علاوة على ظروفها الماليـــة (١٣) .

لم تكتف بريطانيـــا بكل هـــذه التصرفات تجاه مصر بل رغبت فى أن تزيد تدخلها فى شئونها الداخلية ، وذلك بعقد المعاهدات والاتفاقيات فقد عقدت معها معاهدة الغاء الرق فى افريقيا فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧م ، وقد تعهدت الدولتان فى هذه المعاهدة بأن يعملا معا على وقف والغاء تجارة الرق فى افريقيا (١٤) ولم يمض وقت طويل على ابرام هذه المعاهدة الا ونجد الدولتين يوقعان فى الشهر التالى من نفس العام اتفاقية أخرى كان الغرض منها تحديد العلاقة بين الدولتين فى كافة المجالات بما فى ذلك تحديد نفوذ مصر فى افريقيا الشرقية ، وفيما يلى نص بنود هذه الاتفاقية :

ـــ أن يكون لبريطانيا مكانة ممتازة فى سواحل الصومال دون غيرها من الدول الأوربية الأخرى .

ـــ أن يتعهد اسماعيل وخلفاؤه من بعده ، بعدم اعطاء أى قطعة من أرض افريقيا الشرقية لأية دولة اجنبية .

ـــ أن يكون لبريطانيا الحق فى تعيين قناصل لها فى بلاد الصومال .

ـــ ان يقوم الخديو اسماعيل بمنع والغاء تجارة الرق فى افريقيا بشرط أن تعاونه فى ذلك السفن البريطانية .

ـــ أن يتعهد الســـــلطان العثمانى بعدم اعطاء أية قطعة من أرض افريقيا الشرقية لأية دولة اجنبية .

ـــ ان يتعهد الخديو بمعاملة رعايا بريطانيا معاملة حسنة .

ـــ أن تكون حدود مصر فى افريقيا الشرقية ، لغاية رأس حافون .

ـــ أن تتمتع بريطانيا بحرية التجارة فى سواحل البحر الأحمر (١٥) .

---

(١٣) محمد عبد المنعم يونس : الصومال وطنا وشعبا ، ص ص ٣٩ ـــ ٤٠ .

(١٤) محفظة الرقيق رقم (١) المصـــدر السابق ف

(١٥) ترجمة صورة التقرير الوارد من سفارة انجلترا الى نظارة الخارجية فى ٢٧ تشرين عام ١٨٧٨م .

كان من نتيجة موافقة مصر على هذه الاتفاقية أن خسرت جميع الضرائب التى كانت تحصل عليها من هذه البلاد والتى بلغت قيمتها حوالى ١٠٫٠٠٠ عشرة آلاف رأس من الماشية ، ٦٠٫٠٠٠ ستين الفا رأس من الأغنام ، بينما بلغت جملة ما انفقته مصر على هذه البلاد حوالى ٧٠٫٠٠٠ سبعين الفا من الجنيهات بالاضافة الى الانفاق العسكرى الذى بلغت قيمته حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى (١٦) وقد انتهت هذه العلاقة بين الدولتين باحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م .

٢ ــ ايطاليا :

واما عن علاقة مصر بايطاليا فقد بدأت منذ نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر عن طريق المكتشفين الجغرافيين من رجال الدين (١٧)

---

(١٦) د . محمد محمود السروجى : المصدر السابق ، ص ص ٥٠٢ ، ٥٠٤ .

(١٧) كان المبشرون الايطاليون أول من ذهبوا الى افريقيا الشرقية ، وكان من هؤلاء Antoine d'Abbodie الذى اصطحب معه الى الحبشة احد الرهبان الايطاليين الذى قابله فى القاهرة وكان ذلك فى بداية الثلاثينات ، وبعد عودة انطوانى الى ايطاليا قابل البابا جريجورى الرابع عشر الذى وافق على ارسال رجلين من رجال التبشير المسيحى تحت رئاسة المسيو دى جاكوبى Jacobis والذى عرف فى الحبشة فيما بعد باسم ابونا يعقوب ، ولما كان الملك تيودور يدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى رفض ماعداه من مذاهب أخرى ، كالكاثوليكية والبروتستانتية ، مما اضطر دى جاكوبى الى مغادرة غندار عام ١٨٥٥م الى بلدة مصوع ، وهناك اسس مركزا لبعثة كاثوليكية .

لقد تمخض عن وجود المبشرين فى الحبشة أن طلب وزير الخارجية الايطالية ضرورة انشاء مستعمرة للمنفيين وعمال السخرة فى شرق افريقيا وذلك لتنشيط حركة التجارة بين الحبشة ومدينة بيدمنت وقد نجحت ايطاليا عام ١٨٥٩ فى موافقة ملك تجرة فى التنازل عن جزء من ساحل البحر الاحمر ، وخاصة فى المنطقة الواقعة بين خليجى زولا وحنفلية فى مقابل أن تساعده

وقد اتسمت هذه العلاقة التى كانت قائمة بين البلدين بطابع الود والصداقة ولكنها لم تستمر طويلا ، وذلك راجع الى أطماع ايطاليا الاستعمارية فى افريقيا الشرقية ، ففى عام ١٨٦٦ طلبت غرفة جنوا التجارية من الحكومة الايطالية أن تقوم بالاستيلاء على أحد موانى البحر الأحمر كى تكون بمثابة مستعمرة للايطاليين الذين يرغبون فى الاتجار فى الحاصلات الافريقية ويرجع الفضل فى تحقيق هذا الغرض الى كل من سابيتو Sapeto وروباتينو Robattino اللذين زارا بلادا كثيرة من افريقيا الشرقية ، مثل تاجورة واقليم الباغوص وغيرهما وكانا قد عاشا بين قبائل الحباب فتمكنا من معرفة الامكانيات الاقتصادية لهذه البلاد وكانا قد كتبا تقريرا أوضحا فيه كل مشاهداتهما عن أحوال هذه البلاد وكانا قد اقترحا فيه انشاء محطة فى خليج عصب لتزويد السفن الايطالية بما يلزمها من الوقود أثناء رحلاتها التجارية بين جنوا والهند ، ووافقت حكومة ايطاليا على هذه الفكرة ، ومنحت روباتينو اعانة مالية قدرت ببضعة ملايين من الفرنكات ، وذلك لمساعدته فى شراء السفن اللازمة للملاحة فى البحر الأحمر (١٨) وقد تمكن روباتينو بعد ذلك من شراء الأراضى الواقعة بين جنجا ورأس لومة بمبلغ ٦٠٠٠ ريال وقد قام بهذا البيع شيوخها الذين وقعوا العقد فى ١٥ نوفمبر عام ١٨٦٩ ثم تمكن سابتيو بعد ذلك من شراء الأرض الواقعة بين راس لومة وجونه علاله ، وجبل جنجا من بعض شيوخ عصب فى مقابل حصولهم على مبلغ ٨١٠٠ ريال ، وتم توقيع العقد فى ١١ مارس عام ١٨٧٠ ، وفى ١٥ مارس عام ١٨٧١ تمكن سابيتو من شراء

= ايطاليا ماديا وعسكريا فى الحصول على عرش الحبشة ، واستمر المبشرون الايطاليون فى محاولة انشاء مستعمرة فى اقليم الباغوص والحماسين .

والى جانب رجال الدين الايطاليين قام المكتشفون الجغرافيون أيضا بارتياد أماكن كثيرة من أفريقيا ، سواء كان ذلك فى الشمال أو الغرب أو فى السودان أو شوا أو بلاد الجالا أو فى البحيرات العظمى . وكان من بين هؤلاء ستيلا Stella وتشكى Cecchi وكيرينى Chiarini وميانى Miani وبياجا Piaggia وكازاتى Cassati وجيسى Gessi ومارتينى Martini وماسارى Massari وماتيوس Matteocci

انظر مصر الأفريقية للدكتور/جلال يحيى ص ص ١٢٠ — ١٢٥ .

(١٨) د . جلال الدين يحيى : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

رأس دمير من الشيخ برهان أحد شيوخ عصب ، كما قام ايضا بشراء جزيرة درمكية بمبلغ ٢٠٠٠ روبية . بعد ذلك تم رفـــع العلم الايطالى على رأس لومة ، كدليل على امتلاك ايطاليا لها . (١٩) .

لم تقف مصر مكتوفة الأيدى تجاه تصرف ايطاليا ، فقد اعتبرت هذا البيع بيعا باطلا وغير شرعى ، لأن المشايخ الذين وقعوا على عقود البيع كانوا يعملون فى خدمة الحكومة الخديوية ، وكانوا يتقاضون رواتب شهرية بينما اعتبرت ايطاليا من ناحيتها هذا الشراء بأنه شراءا شرعيا لأنها كانت تعتقد فيما يبدو بأن المشايخ المحليين كانوا غير خاضعين للسيادة المصرية وعللت الغرض من شرائها ، لميناء عصب وما جاوره من أرض يهدف الى استغلال الموارد الاقتصـــــادية لهذه البلاد (٢٠) .

ردت مصر على هذه الادعاءات الباطلة من جانب ايطاليا بمذكرة جاء فيها ما نصـــــه :

« ان الساحل الغربى للبحر الأحمر كان يتبع تركيا منذ دخول سليم الأول الى مصر ، الذى تمكن من مد نفوذه الى النوبة والى سواحل البحر الأحمر الغربية (سواكن ومصوع وزيلع وبربرة) وجعل كل هذه الموانى تابعة الى ولاية الحجاز التى كانت جزءا من املاك الدولة العثمانية (٢١) وبهذا العمل تمكن العثمانيون من جعل البحر الأحمر بحيرة عثمانية ، واستمروا فى مواصلة السيطرة عليه حتى عام ١٨٤٥ ففى هذا العام تنازل السلطان العثمانى لمحمد على عن مينائى سواكن ومصوع فى مقابل ان يحصل من الأخير على مبلغ من المال قدرت قيمته بنحو ٢٥٠٠٠ الفا من الجنيهات المصرية ، وبعد حكم محمد على ، آلت ملكية هذين الميناءين الى الدولة العثمانية ،

---

(١٩) نفس المصـــــدر ، ص ١٢٨ .

(٢٠) محفظة ٦ مجلس الوزراء (سودان) ملف ٧ مجموعة ٢٤ بدون تاريخ .

(٢١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية الأولى ، ص ٣٥ .

ولكن لما تولى اسماعيل حكم مصر ضمهما « سواكن ومصوع » في عام ١٨٦٥ الى أملاكه من جديد ، فى مقابل أن يدفع الى الدولة العثمانية مبلغا من المال قدرت قيمته بنحو ١٣٣٦٥ جنيها مصريا ، وفى عام ١٨٧٥ تمكن اسماعيل من ان يضم الى أملاكه فى افريقية الشرقية كلا من هرر وزيلع وبربرة وبلهار وتاجورة (٢٢)

لم تكترث ايطاليا بكل التبريرات المصرية بل استمرت فى ملكيتها لميناء عصب وما جاوره من اراض ، وكانت تتحين الفرص للحصول على المزيد من هذه الأراضي وقد شجعها على ذلك مشايخ النواحى الذين كانوا يبيعون ماتحت أيديهم من أراض خديوية ، مما مكنها بالتالى من الاستيلاء على مينائى بيلول ورهيطة واقامة الأبنية الخاصة بحفظ المهمات الحربية وغيرها وقد قدرت مساحة المنطقة التى تم لايطاليا الاستيلاء عليها فى منطقة افريقيا الشرقية بنحو ٨٠ الف ميل مربع (٢٣) .

لما فشلت مصر فى اقناع ايطاليا بالتخلى عن الموانى التى احتلتها فى الساحل الغربى للبحر الأحمر ، عقدت معها معاهدة ، تضمنت النصوص التالية :

« أن يعترف كل من خديو مصر والباب العالى ، ودولة بريطانيا بشراء ايطاليا لميناء عصب ، الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وباعتبار هذا الشراء شراءا شرعيا » .

« أن تعترف الحكومة الايطالية بمعاهدة الرقيق التى عقدت بين كل من بريطانيا ومصر ، كما تعترف أيضا بسيادة مصر والدولة العثمانية على بقية الساحل الغربى للبحر الأحمر بالاضافة الى تعهدها بعدم توسيع حدودها فى هذه المناطق » .

« اتفق أن يكون لايطاليا فى عصب هيئة تجارية فقط وليس لها الحق فى جعل عصب منطقة عسكرية ، كما انه ليس من حقها انشاء الاستحكامات العسكرية هناك » .

---

(٢٢) عبد المنعم يونس : المصدر السابق ص ٣٧ .
(٢٣) محفظة (٦) مجلس الوزراء « سودان » وثيقة بدون تاريخ

« يحرم على الايطاليين تحريما قاطعا ادخال الاسلحة النارية والذخائر الى عصـــب » .

« على كل من ايطاليا وبريطانيا ومصر أن يتعاونوا معا من أجل تسهيل الاتصال بين الادارات المحلية فى عصب * » (٢٤) .

٣ ـ فرنســـا :

كانت العلاقة الفرنسية المصرية فى افريقيا طيبة للغاية ، ولم تبدأ هذه العلاقة فى التدهور الا عندما بدأت فرنسا فى اقتطاع جزء من الأراضى المصرية فى افريقيا الشرقية ، وقد لعب الفرنسى هنرى لامبرت Henry Lambert دورا هاما فى تحقيق هذا الغرض؛وكان لمبرت هذا يشغل وظيفة نائب قنصل فرنسا فى عدن ، وكان على علاقة طيبة مع شيخ تاجورة الذى حصل من لمبرت على مساعدة مالية ، كان لها وقع طيب على هذا الشيخ الذى تنازل لفرنسا عن جزء من أراضى تاجورة ، ولكن لمبرت هذا لم يتمكن من اتمام هذه الصفقة وذلك لاغتياله بواسطة حاكم زيلع فاضطرت فرنسا ؛ ان ترسل الى تاجورة بدلا منه أحد ضباطها كى يقوم باجراء التحقيقات اللازمة لمعرفة أسباب قتل لمبرت ، وقد عاد هذا الضابط بعد ذلك الى فرنسا وهناك اخبر الحكومة الفرنسية بضرورة انشاء مستعمرة أو محطة فرنسية فى تاجورة ، وكان شيخ تاجورة قد وافق على ذلك فى عام ١٨٦١م وفى عام ١٨٦٢ عقد هذا الشيخ معاهدة مع فرنسا حصلت الأخيرة بمقتضاها على اقامة مستعمرة فى تاجورة فى مقابل دفعها الى هذا الشيخ مبلغا من المال بلغت قيمته ١٠٫٠٠٠ ريال أو مايعادل ٥٠٫٥٠٠ فرنك ، وعلى أثر ذلك رفع الفرنسيون العلم الفرنسى فوق أوبك (٢٥) وفى نفس الوقت عقدت فرنسا مع الحبشـــة معاهدة تجارية كان الغرض منها تنشيط حركة التجارة بين البلدين (٢٦) وفى ١٩ من شهر مايو سنة ١٨٦٢ تمكن الفرنسى سيقر من الاستيلاء على خليج أوبك .

---

(٢٤) تقرير مشروع اتفاق يتعلق بحلول حكومة ايطاليا فى ميناء عصب بدون تاريخ .

* أنظر الخريطة الخاصة بميناء عصب رقم (٨) خلف صفحة ٢٤٨.

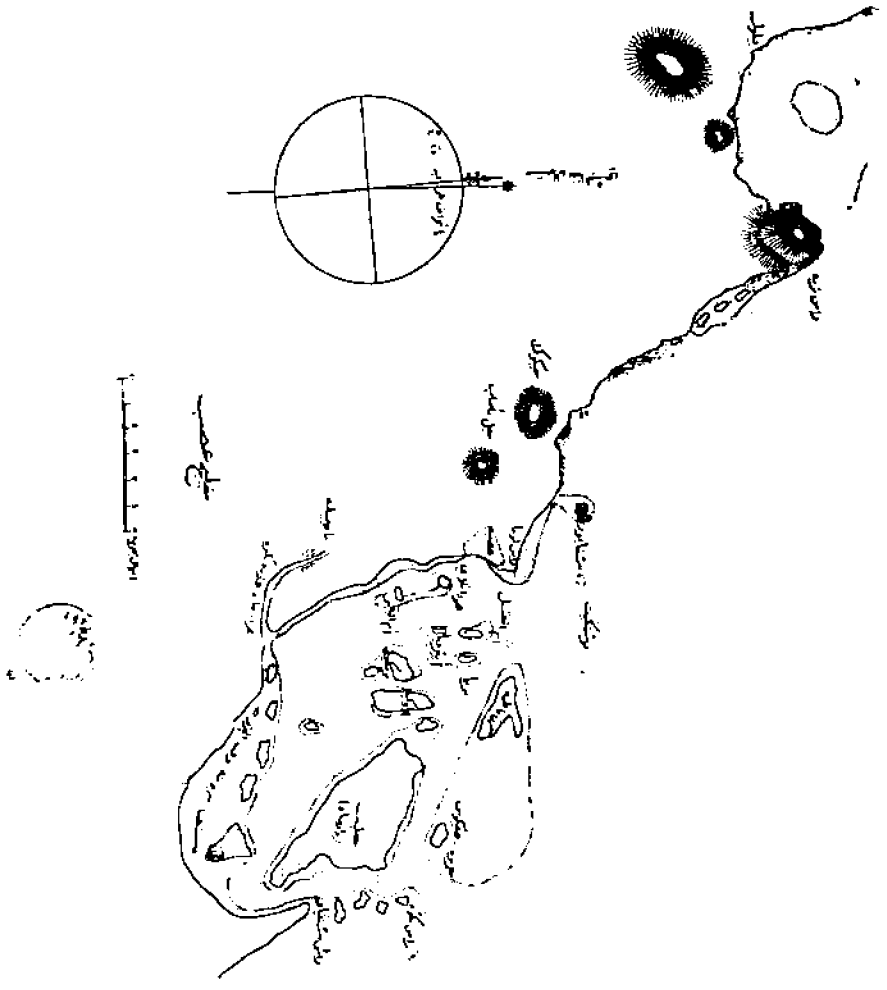

صورة الخريطة رقم (٨)

وهى تمثل خليج عصب ؛ وماجاوره وتقع الى الجنوب من مصوع

لم ترسل فرنسا قوات عسكرية الى اوبك ، بل اكتفت بارسال الاشخاص الراغبين فى تأسيس مؤسسات تجارية هناك وكان هؤلاء مسئولين عن حماية انفسهم ، وكان من هؤلاء الفرنسيين الذين ذهبوا الى اوبك واستوطنوا فيها خاصة فى الفترة مابين ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ كل من دينيس دى ريفوار Denis de Rivoire وبيير ارنو Pierre Arnaux وروس Ross وهيسى Hesse وغيرهم (٢٧) .

يبدو ان فرنسا لم يكن لها اطماع استعمارية فى افريقيا فى بداية الأمر كغيرها من الدول الأوربية ، فربما يرجع ذلك الى انها لم تكن مقتنعة باستعمار اجزاء من افريقيا ، لأن الوقت لم يكن قد حان بعد . ومن المرجح ايضا أن يكون السبب فى عدم ارسالها جنودا الى اوبك هو انها كانت تريد أن توضح لمصر بأن هدفها فى افريقيا هو هدف تجارى وليس هدفا استعماريا ، وهذا الترجيح غير صحيح لأننا نجدها فيما بعد ترسل الى اوبك نحو ٢٢٠ جندى (٢٨) .

بعد هذا العرض الموجز ، يمكن القول بأن استيلاء بعض الدول الأوربية (بريطانيا — ايطاليا — فرنسا) على بعض الموانى الاستراتيجية من افريقيا الشرقية ، كان بداية الاستعداد للاستيلاء على املاك مصر فى هذه المناطق ، ويمكن ارجاع ذلك الى ضعف القوة العسكرية

---

(٢٥) د. جلال الدين يحيى : مصر الافريقية ، المصدر السابق ص ص ١٠٧ — ١٠٩ .

(٢٦) Lewis, L.M. : The modern History of Somalia from nation to state. P. 41.

(٢٧) د. جلال الدين يحيى : المصدر السابق ، ص ص ١١٠ ، ١١٨ .

(٢٨) محافظ ابحاث السودان — دفتر ٥٥ عابدين ، وارد تلغراف رقم ١٠١٩ فى ١١ محرم سنة ١٢٩٧ الموافق ١٨٧٩م .

المصرية ، وعدم مقدرتها على حماية الاقاليم المصرية ، بالاضافة الى أطماع هذه الدول فى استعمار بعض المناطق الاستراتيجية من افريقيا ، واتخاذها كمناطق وثوب الى قلب القارة فيما بعد ، ويرجع ذلك ايضا الى تهاون المشايخ المحليين فى حكم بلادهم الذين كانوا يعملون كموظفين فى ظل السيادة المصرية ، فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الخزانة خاوية وأصحاب الديون يتكاثرون عليها ، بالاضافة الى اشتداد الثورة فى شمال الوادى وفى جنوبه .

الفصل الثانى عشر

الكشوف الجغرافية المصرية (عصر اسماعيل)

من المعروف أن منابع النيل ظلت مجهولة طوال التاريخ وحتى القرن التاسع عشر ، فكان العالم لايعرف شيئا عن مصادر هذا النهر ، التى ظلت لغزا حير العلماء والباحثين ، ولكن هذا اللغز لم يستمر طويلا دون حل ، وذلك بفضـــل الجهود الكشفية التى قامت بها مصر فى القرن التاسع عشر .

فلما تولى محمد على حكم مصر ، حاول الكشف عن منابع النيل ، حيث كانت هدفا من الأهداف التى دفعته الى الدخول الى أواسط افريقيا ففى عام ١٨٢٠ ، أرسل حملة عسكرية تحت قيادة ابنه اسماعيل الى السودان ، وقد تمكنت هذه الحملة من الوصول الى فازوغلى ، والكشف عن جميع المناطق التى مرت من خلالها . ثم أرسل حملة اخرى تحت قيادة البك الدفتردار الى كردفان ، وكانت قد تمكنت ايضا من الكشف عن المناطق التى مرت من خلالها هذا الى جانب محاولاتها الكشف عن المعادن . وقد رسم الدفتردار خريطة وضـــع عليهـــا خط ســـير حملته .

لم تنته جهود محمد على الكشفية عند هذا الحد ، بل انه أرسل فى الفترة ما بين ١٨٣٩ ــ ١٨٤٢م ، ثلاث حملات عسكرية ، وذلك للكشف عن منابع النيل ، وتمكنت هذه الحملات جميعها من الوصول الى خط عرض ٥ ، ٤٢ شمال خط الاستواء ، ولكنها لم تستطع التقدم صوب الجنوب اكثر من ذلك ، فربما يرجع السبب فى ذلك الى عدم مقدرة السفن على اجتياز الجزء الباقى من النيل والوصول الى البحيرات الاستوائية ، وربما يرجع ذلك ايضا الى أن قوات الحملة ، اصبحت غير قادرة على الوصول الى مناطق أبعد من تلك النقطة التى وصلت اليها ، وذلك لما لاقاه جنودها من صعاب ومشقة ، اثناء هذه الرحلة الطويلة ، ويمكن تعليل ذلك ايضا بأن محمد على

اعتقد فى عدم امكانية الكشف عن منابع النيل . وخاصة بعد أن ارسل ثلاث حملات متتالية ، زيادة على ذلك فانه لم يعد فى كامل صحته ؛ حيث كانت السن قد تقدمت به ، وأصبح نشـــاطه محـدودا .

ولكن على الرغم من فشل حملات محمد على ، فى الكشف عن منابع النيل الا أنها تمكنت من القاء الضوء على كافة المظاهر الطبيعية لجميع المناطق التى مرت من خلالها وعلى احوال الســكان الاجتماعية والاقتصـــادية والسياسية ، وفتحت الطريق امام التجارة بين الشمال والجنوب ، ومهدت لانتشار تجارة الرقيق . بالاضافة الى انها شجعت المغامرين والرحالة من دول أوربا ، من أمثال سبيك وجرانت وبرتون على المجىء الى أفريقيا حيث تمكنوا منذ عام ١٨٥٧ من الدخول الى أفريقيا والوصول الى بحيرة فيكتوريا، ومنها اتخذ كلا من سبيك وجرانت طريقهما عبر نهر سومرست الى غندوكرو ومنها الى الخرطوم فالقاهرة ثم أوربا التى وصلوها عام ١٨٦٣ (١) .

بالاضافة الى ذلك فان محمد على أمر حكمدار السودان احمد باشا ابو ودان ، أن يقوم بكشف المنطقة الواقعة بين الخرطوم وبلدة التاكة وبعد كشفها تبين أن سكانها ، كانوا يعيشون فى عزلة عن العالم ، وذلك بسبب التخلف الذى لحق بهم نتيجة للبيئة التى كانوا يعيشون فيها حيث حرمتهم من نور المدنيـــة والحضـــارة (٢) .

ولكن على الرغم من كل الجهود التى بذلها محمد على ، من أجل الكشف عن منابع النيل الا أن هذه المنابع ظلت غير معروفة للعالم باستثناء الأجزاء البسيطة جدا التى تم كشفها بواسطة حملاته ، وكذلك التى تم كشفها بمعرفة كل من سبيك وجرانت وصمويل بيكر ولكن لما تولى اسماعيل حكم مصر اعتنى عناية خاصة بالكشوف الجغرافية لبعض المناطق الافريقية بوجه عام ، والكشف عن منابع النيل بوجه خاص ، وقد شملت المناطق التى تم كشفها فى عصر اسماعيل السودان شرقه وغربه ، ومنطقة بحر الغزال ومنطقة اعالى

---

(١) د . زاهر رياض : كشف القارة الافريقية صرص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) د. السيد يوسف نصر : المصدر السابق صرص ٢٠ — ٤٧ .

النيل ، وأثريتيا الشرقية ، وسوف اتناول بايجاز شديد ، الحديث عن هذه المنـــاطق .

١ ــ الســـودان :

(أ) غرب الســـودان :

بدأ اسماعيل فى ارسال اول بعثة كشفية الى دارفور منذ عام ١٨٦٧ ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة القائمقام محمد نادى الذى بدأ مهمته من بلدة الطيرة الخضراء (٣) الواقعة فى منطقة جبال النوبا وحتى الفاشر ، وقد سجل محمد نادى مشاهداته الخاصة ، بالسكان الذين مرت البعثة من خلال بلادهم ، والخاصة بطبيعة الأرض ، بما فيها من آبار مختلفة الاعماق والمسافات ، وأشجار وتلال ووديان ، بالاضافة الى ذلك ، فانه القى الضوء على الحياة الخاصة بسلطان دارفور ، وكيفية معاملته لشعبه وأسلوب حكمه ، زيادة على ذلك فانه وقف على قوة جيشه بل وعلى عدده ، كما القى الضوء كذلك على الحياة الخاصة للسكان من كافة انواحى (٤) .

وفى ٢٠ مارس ١٨٧٥ أرسل اسماعيل حملة كشفية اخرى بقيادة الكولونيل بروت ، وذلك لكشف المنطقة الممتدة من أم درمان وحتى الابيض ، وقد تمكنت هذه البعثة من القاء الضوء على البلاد التى مرت من خلالها ، من الناحية الجغرافية وغيرها من النواحى الأخرى ، وكان بروت قد تقابل فى بلدة الأبيض ، مع الكولونيل كولستون الذى كان فى اشد المرض مما اضطره ذلك الى التخلى عن قيادة بعثته الى الكولونيل بروت ، وسار الاثنين معا الى أن وصلا الى الخرطوم . وقد رسم بروت خريطة لبلدة الأبيض (٥).

---

(٣) بلدة الطيرة الخضرة سبق تفسيرها فى الباب الأول .

(٤) تقرير محمد نادى ، محفظة ٩ معية عربى ، مستخرج من المعيـــة التركية من المحفظة ٤١ ــ ٤٢ فى ٢٠ صفر عام ١٢٨٤ الموافق ١٨٦٧م .

(٥) تقرير المسيو بروت ، مجلة أركان حرب الجيش المصرى ، العدد الأول ، السنة الثالثة ، الجزء الأول من المجلد الاول صص ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٧ .

وفى ٢٠ ابريل سنة ١٨٧٥ قام الكولونيل كولستون بك Colston على رأس بعثة كشفية الى الابيض ، فقد بدات هذه البعثة مهمتها من بلدة الدبه الواقعة على النيل النوبى بالقرب من بلدة دنقله العجوز الى الأبيض ، وكان كولستون قد وصف فى تقريره طبيعة الطريق الذى سارت بعثته من خلاله ، كما انه القى الضوء على الابار والوديان ، وعلى القبائل التى تقطن هذه المنطقة وقد رسمت البعثة خريطة للمنطقة التى مرت من خلالها (٦) .

وفى ١١ ديسمبر عام ١٨٧٥م أرسل اسماعيل ، اليوزباشى (النقيب) محمود أفندى صبرى ، على رأس بعثة كشفية ، لكشف المنطقة الشمالية الغربية من دارفور ، وتمكنت هذه البعثة من وصف المظاهر الطبيعية لهذه البلاد ، كما وصفت الحياة العامة لسكان هذه المنطقة (٧) .

وفى ١٩ فبراير ١٨٧٦م ، ارسلت مصر الكولونيل بردى ، لكشف المنطقة الممتدة من دارا ، وحتى حفرة النحاس ، وكان بردى قد تمكن من وصف طبيعة الأرض التى مرت بعثته من خلالها ، كما تمكن من القاء الضوء على حياة الشعوب والقبائل التى تقطن هذه البلاد وتمكن من زيارة منطقة حفرة النحاس ، والتى كان السكان يستخرجون منها النحاس ، ولكن بطريقة بدائية، وكان بردى قد رسم ثلاث خرائط ، منهم خريطة للمنطقة الواقعة غرب دارفور، والتى تعرف باسم خور الكوه ، وخريطتين اخرتين للمنطقة الواقعة بين دنقله العجوز والفاشر ، وكتبت بيانات واحدة منهما باللغة الأجنبية وكتبت بيانات الأخرى باللغة العربية (٨) .

(ب) شرق السـودان :

ويمثل شرق السودان حلقة الاتصال ، بين غرب السودان ، وبين

---

(٦) Colston : Report sur le Kordofan. Bul. Soc. kh. Geog. Serie V-XI. PP. 11-21.

(٧) محمود أفندى صبرى ، مجلة أركان الجيش المصرى ، العدد الثانى السنة الثالثة ــ المجلد الأول صرص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٧ .

(٨) Purdy : Les pays Dera et Heufrah en Nahas. Bul. Soc. Kh. Geog. Serie. I-V. P. 401.

الساحل الغربى للبحر الأحمر ، ولما كان معظم هذه البلاد لايزال مجهولا ، فقد قرر اسماعيل باشا أن يرسل فى سبتمبر عام ١٨٧٥م حملة عسكرية تحت قيادة ارندروب ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين سنهيت على البحر الأحمر ، ومنطقة جونديت ، شمال الحبشة وتمكنت هذه الحملة من القاءالضوء على أحوال هذه البلاد ، من غابات ، وأدغال ومستنقعات وغيرها ، وقد رسمت البعثة خريطتين لمنطقة جونديت ، وضحت عليها كافة المظاهر الطبيعية لتلك المنطقة .

وفى نوفمبر من نفس العام ، ارسل اسماعيل ايضا حملة عسكرية اخرى، تحت قيادة منزنجر باشا وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين تاجورة على البحر الأحمر ومنطقة الأوسه الواقعة فى جنوب الحبشة وقد كتب أحد ضباط هذه الحملة ، تقريرا شاملا وضح فيه طبيعة الطريق الذى سارت الحملة من خلاله ، والمظاهر الطبيعية الأخرى (٩) .

وفى عام ١٨٧٦ أرسل اسماعيل حملة عسكرية اخرى تحت قيادة راتب باشا الى مصوع ، وذلك لمحاربة ملك الحبشة وكشف المنطقة الواقعة الى الداخل من مصوع ، وقد تمكنت هذه الحملة من كشف كثير من المناطق التى مرت من خلالها مثل منطقة سنهيت ، وقرع ، وحرقيقو ، وحطملو ، وام كلوا وقياخور وتمكنت أيضا من القاء الضوء على البلاد والأماكن التى مرت من خلالها (١٠) .

وفى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٠م أرسل الخديو توفيق،حملة كشفية اخرى تحت قيادة البكباشى محمد مختار ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين بلدة أبى حراز الواقعة على النيل الأزرق ، وبين بلدة كسلا ، وتمكنت هذه البعثة من كشف كل من بلدة القضارف والقلابات وتومات ، ولاكاتاكار ، واميديب وكسلا . وكتب محمد مختار تقريرا شاملا ضمنه وصفا دقيقاللمظاهرالطبيعية لكل البلاد ، ولطبيعة الطريق الذى سارت البعثة من خلاله ، كما القى الضوء على العادات الاجتماعية التى كانت سائدة بين سكان تلك البلاد (١١) .

---

(٩) أنظر تقرير حملة الأوسة بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا للمؤلف .

(١٠) أنظر تقرير حرب الحبشة عام ١٨٧٦م بكتاب الوثائق للمؤلف .
Mohamed Moktar : Dans le Sudan oriental. Bul. Soc. Kh. Geog. N. II. PP. 5-18.

والى جانب جهود مصر الكشفية فى شرق السودان ، كانت هناك الجهود الكشفية غير الرسمية التى كانت تتم بمساعدة مصر ، فقد قام بهذه الكشوف كثير من الرحالة والمغامرين ، منهم صمويل بيكر ، الذى تمكن من كشف منطقة نهر العطبرة ، والدكتور يونكر الذى تمكن من اكتشاف منطقة خوربركة عام ١٨٧٦م وبصفة خاصة الجزء الداخلى ، من هذه الخور الذى ظل غير معروف للعالم الخارجى مدة طويلة من الزمن ، بالاضافة الى ما قام به رجال البعثات الكاثوليكية فى هذا المجال من امثال بلتريم ومارتينى ومارنو وغيرهم كثيرون (١٢) .

٢ ــ منطقة أعالى النيــل :

وبالنسبة لمنطقة أعالى النيل ، فقد أرسل اسماعيل فى عام ١٨٧٠م حملة كشفية تحت قيادة السير صمويل بيكر ، الذى تقاضى من الحكومة الخديوية مرتبا سنويا قدره عشرة آلاف جنيه (ذهب) ، وكان الغرض من ارسال هذه الحملة ، هو الكشف عن منابع النيل ، ثم العمل على استتاب الأمن فى جميع البلاد التى تخضع للسيادة المصرية ، والقضاء على الرق ، وتأسيس تجارة شرعية هناك ، بالاضافة الى تأسيس حكومة قوية (١٣) .

وكان من نتائج حملة السير صمويل بيكر ، أن تم انشاء ثلاث محطات عسكرية فى منطقة أعالى النيل ، وتم أيضا الكشف عن بعض المناطق الجديدة فى المديرية الاستوائية ، ولكن على الرغم من كل ذلك الا انها فشلت فى القضاء على تجارة الرق ، علاوة على اثارتها عداء الأهالى ضد الحكومة الخديوية ، وذلك بسبب هجومها عليهم من أجل الحصول منهم على مايلزمها من مؤن ، ويمكن تعليل فشلها بعدم تزويدها بالمؤن الكافية التى تمكنها من انجاز مهمتها ، وربما يرجع ذلك أيضا الى معاملة صمويل بيكر السيئة للوطنيين ، التى دفعتهم الى مناوشة الحملة ، مع انه كان فى امكانه أن يعاملهم باللين ، حتى يكسب ثقتهم وعطفهم وتعاونهم ، ومن المرجح أن يكون هذا الفشل ،

---

(١٢) د. جلال الدين مصطفى يحيى : مصر الأفريقية ، المصدر السابق ص ١٢٣ .

(١٣) د. جلال الدين يحيى نفس المصدر ص ص ٧٥ ، ٧٩ .

راجعا الى صعوبة المواصلات ، التى كان لها اثر فعال فى احباط مهمة الحملة

لم يكتف اسماعيل بذلك ، بل ارسل فى ٢٢ مارس ١٨٧٤م حملة كشفية اخرى ، تحت قيادة غردون باشا الذى اصطحب معه عددا من الضباط المصريين والأجانب ، من أمثال ابراهيم فوزى ، وجيسى ، وماسون ، وشاييه لرنج ، وارنست لينان دى بلفون ، وكانت حملة غردون هذه قد تمكنت من الوصول الى بحيرة البرت نيانزا ، وهناك ارسل غردون باشا ، رومولى جيسى على رأس بعثة كشفية للابحار فى هذه البحيرة ، وذلك لمعرفة حدودها الجنوبية ، وما يتصل بها من انهار ، ولكن جيسى فشل فى تحقيق هذا الهدف ولكنه تمكن من رسم خريطة للبحيرة ، فاضطر غردون باشا ، بعد ذلك الى أن يرسل حملة اخرى بقيادة ماسون بك Masson Bey الذى تمكن من الدوران حول شواطىء البحيرة وتمكن أيضا من معرفة القرى التى تقع بجوار شاطئها الشرقى ، وكان من هذه القرى قرية فاكوفيا ، التى يعمل سكانها بصيد الاسماك ، وباستخراج الملح ، وبيعه للقبائل المجاورة ، وتمكن ماسون أيضا من القاء الضوء على احوال هؤلاء السكان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وتمكن من كشف مصب نهر السمليكى ، الذى يتصل بالبحيرة من جهة الجنوب ، ورسم ماسون خريطة للبحيرة وضح عليها خط سير بعثته فوق سطح مياه البحيرة ، كما رسم ايضا خريطة لجزء من بحر الجبل (١٤) .

وفى عام ١٨٧٥ أرسل اسماعيل باشا ، بعثة كشفية بقيادة شايو لونج Chaille-Long وذلك لكشف المنطقة الممتدة من بحيرة البرت وحتى اوغندا ، وكان عليه أيضا أن يعقد معاهدة صداقة بين مصر وبين ملك اوغندا الملك ميتسا Metsa وقد تمكنت هذه البعثة من كشف المنطقة التى سارت من خلالها ، وألقت الضوء على سكانها من الناحية السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية . وبعد أن ادت مهمتها فى أوغندا قرر شايولونج أن يذهب

---

(١٤) ماسون بك ، تقرير عن كشف بحيرة البرت ، جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، السنة الثالثة ، الجزء الثالث من المجلد الثانى ، العدد التاسع عشر ص ص ٦٨٠ — ٦٨١ .

لكشف بحيرة كان قد سمع عنها من السكان هى بحيرة كيوجا او كودج Codge وبعد ان كشفهـا لونج اطلق عليهـا اسم بحيرة ابراهيم ورسم لهـا خريطة وضع عليها خط سيرة .

ولكن على الرغم من كشفه لهذه البحيرة الا أن الجمعية الجغرافيـة البريطانية لم تنشر اسمه على الخريطة التى أعدتها لبعض المناطق التى تم كشفها فى منطقة اعالى النيل ، بل وام تنسب اليه كشفه لبحيرة ابراهيم ، مما اضطره ذلك الى ان يشكو الى غردون باشا ، الذى طلب بدوره من المسئولين فى لندن عن رسم الخرائط الا يتجاهلوا اسم لونج مرة ثانية ، ولكنهم لم يهتموا بذلك ؛ فقد شاهد لونج على خريطة نشرها كيث جوستون Keith-Johston فى عام ١٨٨٠ خطأ اكبر من السابق وهو احلال كلمة كودج محل اسم بحيرة ابراهيم ، بل ونسب كشف بحيرة كودج هذه الى شخص آخر غير لونج ؛ مما دفع لونج الى أن يشكو مر الشكوى للمرة الثانية ، وتقدم بشكواه هذه المرة الى السيد/رذر فورد الكوك Ruther Ford Alcock نائب رئيس الجمعية الجغرافية البريطانية فى ١٩ مايو سنة ١٨٨١ مما اضطر الجمعية الجغرافية البريطانية الى أن تكلف المستر رافن استين Raven Stein باعداد خريطة لافريقيا الوسطى ، بحيث يظهر عليها اسبقية لونج فى اكتشافه لبحيرة ابراهيم (١٥) ، وكان لونج قد كتب عددا من الخطابات التى كان يرسلها الى الجهات العلمية والرسمية بشأن هـذا الموضـوع (١٦) . بـ

---

(١٥) Long, C. : Decouverture de source du Nile. Bul. Soc. Kh. Geog. PP. 540-542.

(١٦) أنظر البعض من خطابات شايولونج التى ارسلها الى الجهات المسئولة عن رسم الخرائط ، والتى يطالب فيها باحقيته فى كشفه لبحيرة ابراهيم وبضرورة ان تحمل اسم (بحيرة ابراهيم) بدلا من اسم (بحيرة كيوجا) فى كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا للمؤلف . ولكننا نكتفى هنا بنشر صورة لاحداها وهو على النحو التالى : ـــ

Colonel Chaillé-Long.
Chevy Chase, Md.
Dear sir,

وفى عام ١٨٧٥ أرسل اسماعيل بعثة كشفية أخرى تحت قيادة أرنست ليتان دى بلفون Ernist De Bellefond وذلك لكشف المنطقة الممتدة من بلدة الرجاف الواقعة فى جنوب السودان وحتى بلدة فاتيكو ، ومن فاتيكو واصلت البعثة المسير الى أوغندا ، فقد تمكنت من القاء الضوء على كافة البلاد التى مرت من خلالها ؛ من حيث المظاهر الطبيعية الممثلة فى الوديان ، والسهول ، والغابات . وبعد أن وصل ارنست الى أوغندا استطاع أن يتجول فى الجانب الشرقى لبحيرة فيكتوريا ورسم أرنست خريطتين للمنطقة التى مرت بعثته من خـــلالها (١٧) .

والى جانب جهود مصر الكشفية فى أعالى النيل ، وجدت الجهود الكشفية غير الرسمية التى كان يقوم بها الرحالة والمغامرون من الأجانب ، من أمثال برون روليه Brun Rullet الذى تجول فى منطقة النيل الأبيض وبحر الغزال ، وجون بثريك John Petheric الذى تجول فى منطقة بحر الغزال ؛ ودى مالزاك De Malzak الذى اكتشف بعض أجزاء من المديرية الاستوائية ، وصمويل بيكر الذى اكتشف بحيرة البرت نيانزا ، والدكتور يونكر الذى تمكن من كشفه

=In accordance with the request in your letter of the 6th. ultimo, I have brought its subject matter before the first meeting of the Council of the Society after our recess.

After due soncideration, standing instructions have been issued to the Mapping Departement that in all such maps, issued by the authority of the Society, as are on a sufficiently large scale to make it practicable, the name «Lake Ibrahim» shall be added in brackets, to the native name, as was done in the Society's map prepared by Mr. Ravenstien.

I have the honour to be Sir,
Your obedient servant,
GEORGE TAUBMAN GOLDIE,
President R.G.S.

(١٧) De Bellefond, E.L. : Itineraire et Nots. Bul. Soc. Kh. Geog. serie I-V. PP. 295-296.

ما يقرب من حوالى ٢٥ نهرا ، لم يسبق لأحد اكتشافها من قبل ، وقد رسم يونكر خريطتين للمنطقة التى كشفها وضح عليهما كافة المظاهر الطبيعية التى توجد بتلك المنطقة ، وكنوبلخر الذى وصل الى بلاد البارى ؛ وهناك انشأ مركزا لبعثة كاثوليكية (١٨) . والى جانب ما سبق ذكره ، وجدمغامرون آخرون من امثال استيلا Stella وســـابيتو Sapeto وميانى Maini وبياجا Piagga وكازاتى Casati وماسارى Massari ومتيوس Matteocci وغيرهم (١٩) .

٢ ــ افريقية الشرقية :

عمدت مصر الى ضم سواحل البحر الأحمر الغربية ، وكذلك خليج عدن وسواحل المحيط الهندى الغربية تحت السيادة المصرية ، فقد بدا اسماعيل فى تنفيذ ذلك منذ حصل من الدول العثمانية ، على مينائى سواكن ومصوع، وقد اكد السلطان العثمانى هذا التنازل فى فرمان ٢٧ مايو عام ١٨٦٦ الذى على اثره سير اسماعيل باشا عدة بعثات كشفية لارتياد هذه المنطقة ، وكانت الأولى منها بقيادة جعفر مظهر ، الذى ارتاد فى عام ١٨٦٧ سواحل البحر الأحمر الغربية حتى باب المندب ، وقد كتب تقريرا ضمنه كافة مشاهداته، عن احوال هذه البلاد من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصـــادية ، ومن بعده قام جمالى باشا على راس بعثة عسكرية وذلك للمرور على سواحل افريقية الشرقية . وتمكن من الوقوف على أحوال هذه البلاد ، من كافة النواحى ، وفى عام ١٨٧١ ، قام احمد ممتاز باشا على راس بعثة كشفية الى بلدة بلهار ، وذلك لاستطلاع احوالها وكتب تقريرا وافيا عن احوال هـــذه البـــلدة .

وفى عام ١٨٧٥ ارسل الخديو اسماعيل ايضا بعثة كشفية تحت رئاسة اللواء محمد رؤوف باشا ، وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين زيلع على البحر الاحمر ، وبين هرر فى الجنوب وقد تمكنت هذه البعثة من مشاهدة كافة

---

(١٨) د. جلال الدين مصطفى : المصدر السابق ص ١٢٣ .

(١٩) نفس المصدر صرص ١٣٥ ، ١٣٨ ؛ وانظر الخريطة رقم « ١ » ورقم «ب» خلف صـــفحة ٢٦٢ .

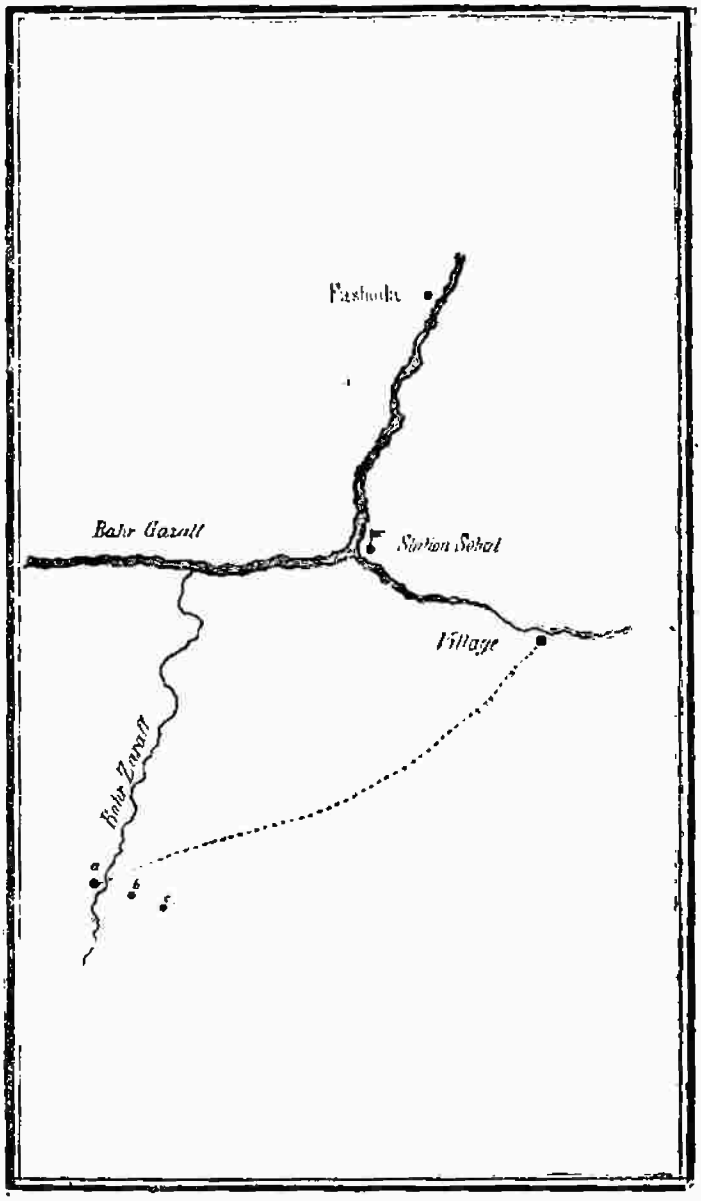

الخريطة رقم (١)

هذه الخريطة مستخرجة من كتاب أقاليم « خط الاستواء » وهى توضح النيل الأبيض وبحر الغزال وبحر الزراف ومحطة السوباط .

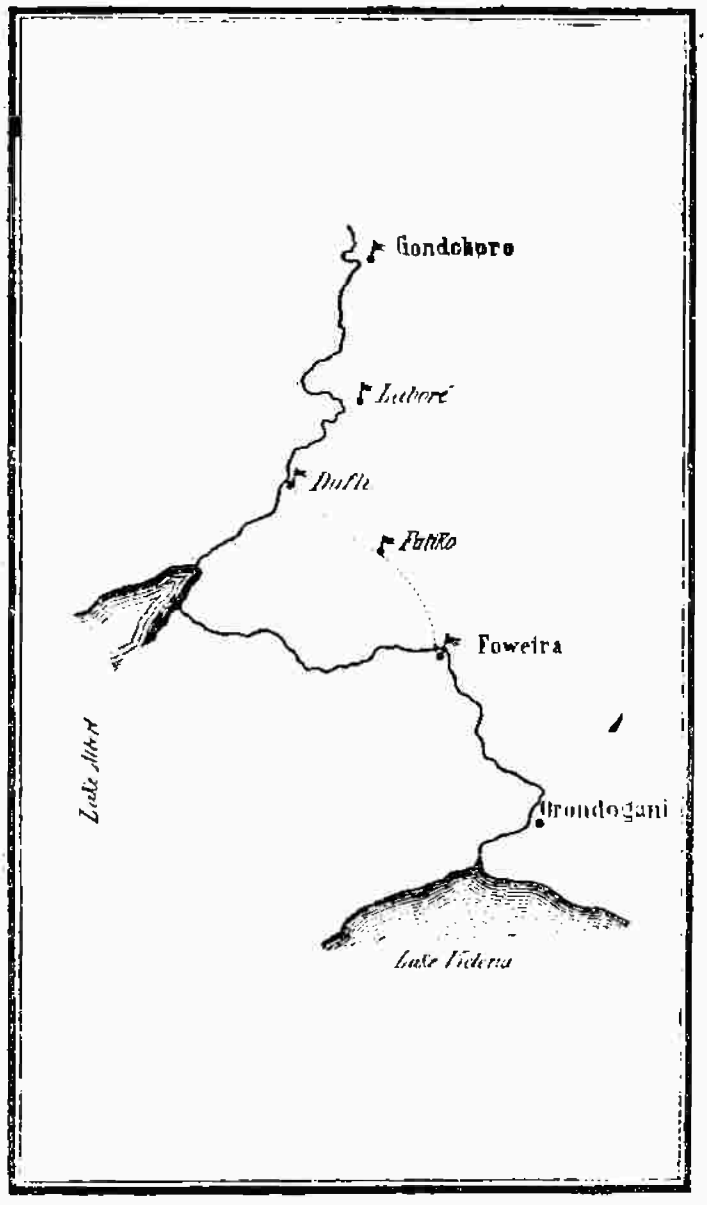

الخريطة رقم (ب)

هذه الخريطة مستخرجة من كتاب « أقاليم خط الاستواء » «provinces of the Equator» وهى توضح عددا من المحطات التى انشأتها مصر فى منطقة اعالى النيل عام ١٨٧٤م . وهى محطة غندوكرو ولابورية ، ودوميبى وفايكو وفويرا وأوروندجانى ، بالاضافة الى بحيرة البرت وبحيرة فيكتوريا وتوجد خلف صفحة ٢٦٤ .

الظواهر الطبيعية ، من وديان وتلال ومدقات وأشجار ، وكتب رؤوف باشا تقريرا شاملا أورد فيه وصفا دقيقا للقبائل الصومالية (قبائل العيسى) كما القى الضوء على كافة أحوالهم من النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وتناول فى تقريره وصفه لمدينة زيلع وهرر ، ورسم أيضا خريطة لخليج عدن وأخرى لبلدة هرر (٢٠) .

بعد أن تم لاسماعيل باشا الاستيلاء ، على الساحل الصومالى ، قرر أن يرسل حملة كشفية أخرى ، الى أفريقية الشرقية ، وذلك لضمها للسيادة المصرية حتى يمكن له أن يربطها بمنطقة أعالى النيل (٢١) ، ويرجع تاريخ هذه المسألة الى عام ١٨٧١ ففى هذا العام قرر اسماعيل أن يرسل الى مومباسا حملة كشفية تحت قيادة بردى باشا Purdy Pasha ومنها تتجه الى بحيرة فيكتوريا ، مارة بين جبلى كينيا وكليمنجارو ، وعلل اسماعيل السبب فى ارساله لهذه الحملة بأنه اراد أن ينقذ السير صمويل بيكر من الكارثة التى تعرض لها ، وكان اسماعيل فى الحقيقة يبغى من وراء ذلك عدم اثارة الرأى العام العالمى ضده ، ولكن لم يكتب النجاح لهذا المشروع لسبب أو لاخر (٢٣) .

لم يستمر هذا المشروع فى طى النسيان ، بل نجد اسماعيل يرسل فى عام ١٨٧٥ حملة عسكرية الى شرق أفريقيا وكانت هذه الحملة تحت قيادة ماكيلوب باشا ، وذلك لكشف منطقة مصب نهر الجوبا وضمها الى السيادة المصرية ومنها تخترق الحملة أراضى أوغندا الى منطقة أعالى النيل ، لكى تقابل القوة العسكرية التى يقودها غردون باشا ، مدير خط الاستواء (٢٢) .

كان اسماعيل يقصد من وراء ذلك ربط الأملاك المصرية فى أعالى النيل بأفريقية الشرقية ، بالاضافة الى توسيع املاكه فى أفريقيا مما يؤدى بالتالى الى سهولة الاتصال بواسط القارة الأفريقية .

---

(٢٠) تقرير محمد رؤوف باشا ـ المتحف الحربى ، تحت رقم ١٦٢٣ فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٢١) د. جلال الدين مصطفى يحيى ، المصدر السابق ص ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢٢) د. جميل عبيد : المصدر السابق ص ١٢٨

بعد أن اقتنع اسماعيل بوجهة نظر غردون ، أعد حملة عسكرية مكونة من ٥٥٠ جنديا ، تحت قيادة ماكيلوب باشا ، الذى كان برفقته كل من الكولونيل شايو لونج ، الذى عهد اليه بقيادة القوه الحربية التى سوف تتجه من منطقة نهر الجوبا الى المديرية الاستوائية ، والضابط عبد الرازق بك ناظر مدرسة البحرية المصرية ورضوان باشا وقد زودت هذه الحملة بعدد من السفن المصرية مثل الجعفرية ، الصاعقة ، ومحمد على ، ولطيف وطنطا ، ودسوق ، وقد توجهت هذه السفن فى ١٩ سبتمبر عام ١٨٧٥ وبعد أن اكتمل اعدادها توجهت من السويس الى بربرة وهناك زودت بما يلزمها من المياه العذبة ومن بربرة اتجهت الى رأس حافون ، وهناك قابل شيخها قائد الحملة وطلب منه دخول بلدته تحت السيادة المصرية ، وقد وافق القائد على ذلك ومنحه علم مصر ليرفعه فوق بلدته ايذانا بوضعها تحت السيادة المصرية وقد تعرف ماكيلوب على جميع النواحى فى هذه البلدة ، ومن بعدها اتجهت الحملة الى براوة ، وفيها قابل قائد الحملة سكانها ، الذين قدموا اليه التماسا موقعا منهم يطلبون فيه دخولهم فى حوزة الحكومة المصرية (٢٣) ، وقد قبل ماكيلوب ذلك ، وكانوا قد افهموه بأن سلطان زنجبار كان يحصل منهم على العشور فى نفس الوقت كان لايستطيع حمايتهم من غارات البلدان المجاورة لهم عندئذ ترك ماكيلوب قوة عسكرية من جنود الحملة فى هذه البلدة ، كانت بمثابة حامية عسكرية . بعد ذلك اتجهت الحملة الى قسمايو ، التابعة ايضا الى سلطان زنجبار وقد رحب سكانها بالسيادة المصرية عليهم وبالدخول فى حوزة مصر .

وقد وصف رضوان باشا منازل هذه البلدة بأنها تتكون من عدد من المساكن المبنية من خشب وأوراق جوز الهند ، المستوردة من مدينة لامو ، الواقعة الى الجنوب من بلدة براوة ، وكانت المبانى الحجرية فيها معدومة تماما ، ولكن رغم هذا فان قسمايو كانت مركزا تجاريا هاما ، فكان التجار يأتون اليها من الهند وزنجبار ومسقط ، وكان تجار الهند يحضرون معهم الارز والبصل وقصب السكر وكان تجار زنجبار يحضرون معهم التمر والذرة وكان يرد اليها من داخل افريقيا المسلى والصمغ وريش النعام .

---

(٢٣) انظر الالتماس المقدم من شيوخ براوة بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا ، للمؤلف .

وكانت الحملة قد اتجهت بعد ذلك لاكتشاف بلدتى لامو وفرموزا ، لكى تقف قائدها على احوالهما ، وكان قد قابل كثيرا من شيوخ هاتين البلدتين وكان السكان قد طلبوا من ماكيلوب ان يدخلوا فى حوزة الحكومة المصرية ، ووافق قائد الحملة على ذلك (٢٤) .

لم ترض بريطانيا عن الوجود المصرى فى تلك البلدان ، لأن ذلك يتعارض مع مصالحها فوقفت بكل قواها ضد رغبة اسماعيل ، واستخدمت فى ذلك المستر كيرك قنصلها فى زنجبار ، حيث قام بتحريض سلطان زنجبار بأن يعمل من جانبه على ضرورة اجبار المصريين على الانسحاب من البلاد ، التى احتلوها فى افريقيا الشرقية .

ونتيجة لهذا الضغط قرر اسماعيل سحب قواته من هذه البلاد وهو مرغم ، وتم ذلك بالفعل فى ٢٠ يناير عام ١٨٧٦ ، وبعد ذلك عقدت معاهدة بين مصر وبريطانيا ، تم بمقتضاها تحديد مناطق النفوذ المصرى فى افريقيا الشرقية ، بحيث تضمن المنطقة التى تبدأ من شمال سواكن وحتى رأس غردفوى .

لم تقف جهود اسماعيل الكشفية عند هذا الحد بل قرر فى ٣ نوفمبر عام ١٨٧٧ ، أن يرسل بعثة كشفية بقيادة البكباشى محمد مختار باشا ، وذلك لكشف بلاد الأوجادين أو بلاد الجاديبورسى ، وقد تمكنت هذه البعثة من القاء الضوء على طبيعة هذه البلاد وعلى أحوال سكانها ، ورسم محمد مختـــار خريطة لرأس غردفون (٢٥) .

تعتبر حركة الكشوف الجغرافية المصرية ، فى افريقيا فى عصر اسماعيل، من أهم انجازات الوجود المصرى فى تلك الفترة وخير دليل على ذلك ما قاله بعض القادة والكتاب عن هذه الحركة الكشفية ، ففى هذا الصدد قال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى مانصه :

---

(٢٤) د. جلال الدين يحيى ، المصدر السابق ص ص ١٧٨ — ١٨١

(٢٥) Mohamed Moktar : un reconnaissance au pays de Gadubourdis. Bul. Soc. Kh. Geog. N. 7. PP. 5-16.

« اصبح الطريق مفتوحا أمامنا من لندن وحتى بحيرة البرت نيانزا ؛ ويمكن قطع هذه المسافة فى ٧٣ يوما ؛ وأن الخطوط التلغرافية قد انشئت . ووصلت الى بلدة فوجا فى غرب السودان » (٢٦) .

وأضاف بنولا بك Bonola Bey عضو الجمعية الجغرافية المصرية ما نصه :

« استطاعت مصر أن تدهش العالم بجراة اكتشافها وسرعة فتوحاتها ، ودقة معلوماتها فى افريقيا ؛ ولا يمكن لأحد أن ينكر فضل مصر على هذه البلاد التى تم فتحها ، وبصفة خاصة السودان الذى عاش أمجد ايامه تحت الحكم المصرى ، ويذكر أيضا ان ملوك مصر ، أقاموا السلم بين قبائل البجه والعرب فى السودان الشرقى والاوسط ، وسيطروا على كردفان ودارفور ، اللتين لم يدخلهما احد من قبل ذلك ، وبلاد نيام نيام ، التى كان اسمها فقط يحيط بأسطورة من الرعب ، وهزم قلعة التعصب الأعمى ؛ فبفضل هذه الكشوفات استطاع العلم والتجارة أن يدخلا ، الى هذه المناطق النائية ، وان تفتح آفاق جديدة للنشاط الانسانى فى افريقيا ، وان يستتب الأمن والاستقرار فى كل المناطق التى فتحتها مصر ، بحيث أصبح الرحالة والتجار يذهبون الى قلب افريقيا ، دون خوف من جانب الوطنيين ، فقد محى ظلام البربرية رحلت محله نور المدنية الحديثة ، وقد اعترف العالم المتحضر بهذا العمل الرائع من جانب مصر » (٢٧) .

وأضاف أبات باشا Abbat Pacha ما نصه :

---

(٢٦) أنظر جلسة الجمعية الجغرافية المصرية ــ المنعقدة يوم ١٧ فبراير عام ١٨٧٨ ــ المجلد الأول ص ١٥ .

Bonola Bey : L'expedition Egyptien en Afrique. Bul. Soc. Kh. Geog. Serie II. N. 8. PP. 425-429.

(٢٨) أنظر محضر جلسة الجمعية الجغرافية المصرية يوم ١٧ فبراير عام ١٨٧٨ ، من مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، المجلد الثانى ص ٧٩٥

« لقد تمكنت الحكومة المصرية من تعمير المدن وتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية بين مصر والسودان التى عادت على المواطنين بالرخاء » (٢٨) .

واضح من اقوال هؤلاء الكتاب أن الكشوف المصرية فى افريقيا فى عصر اسماعيل ، كان لها اثر فعال فى حياة شعوب هذه البلاد ، لأنها ازاحت الظلام والجهل والتخلف ، وأدخلت بدلا من كل هذا الى هذه البلاد نور الحضـــــارة والمدنية (٢٩) .

---

(٢٩) لزيادة الاطلاع فى هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب جهود مصر الكشـــفية فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر للمؤلف .

الفصل الثالث عشر

نظام الحكم المصرى فى البلاد الأفريقية (عصر اسماعيل)

لقد تضمن نظام الحكم المصرى فى السودان ، وفى بعض البلدان الافريقية الأخرى ، فى هذه الفترة عدة مظاهر حضارية ، كانت على جانب كبير من الأهمية ، وكان من هذه المظاهر انتشار الامن فى ربوع هذه البلاد ، وانتشار التعليم والقضاء والصحة والعمارة . وسوف أتناول الحديث عن كل مظهر من هذه المظـــاهر على حدة :

١ ــ الأمن :

الامن ضرورى لحماية أفراد المجتمع وممتلكاتهم من السلب والنهب ، ومن عبث الخارجين على القانون والسلطة ، فبدون الامن تنتشر الفوضى والانهيار وعدم الاستقرار والخوف . ونتيجة لذلك نجد ان اسماعيل حرص كل الحرص على أن يعمل من جانبه على نشر الأمن فى ربوع البلاد التى خضعت للسيادة المصرية ، وذلك بالقاء القبض على اللصوص وقطاع الطرق ، ووضعهم فى السجون ، وندلل على ذلك ببعض الأمثلة التى نذكرها على سبيل المثال وليس الحصر والتى منها ، انه عندما انقض اللصوص فى السودان ، والبالغ عندهم ٣٠٠ شخص من الأشقياء ، على قبائل الدنكا والشلك ، وسلبوا مواشيهم ، واسروا أولادهم ، لذلك قام مدير النيل الأبيض بمطاردتهم والقاء القبض على بعضهم ، وتمكن البعض الاخر من الهرب ، وكان رجال الأمن ، قد تمكنوا من قتل احمد أبو شنيبه ، والقاء القبض على محمد عيسى الذى نفى الى فازوغلى ، وكانا هذان الاثنان من زعماء اللصـــوص .

وكان مدير النيل الأبيض قد صادر ما مع اللصوص من مواشى الى جانب مديريته ، وهناك قام بتوزيع بعض المواشى والعبيد على الموظفين ، والجنود

الذين اشتركوا فى مطاردة اللصوص ، واحتفظ لنفسه بالباقى ، ولكن لما علم اسماعيل بهذا التصرف من جانب المدير ، عزله من منصبه وعين بدلا منه مديرا آخر ، وفى هذا الصدد يخاطب الخديو اسماعيل حكمدار السودان بقوله ما نصـــه :

« ان من أهم واجبات مدير البحر الأبيض هو حفظ الأمن فى تلك الجهة ، وقطع دابر الاشقياء والاشرار والسعى الدائم الى عمران مديريته ، واسعادها ، جاعلا ذلك نصب عينيه ، عاملا على تحقيقه » (١) .

يفهم من هذه العبارة أن اسماعيل كان جادا فى حفظ واستقرار الأمن فى السودان فنجده لما علم بتصرف واهمال مدير النيل الأبيض بادر فأمر بعزله من وظيفته وارسله الى فازوغلى ليسجن هناك ، حيث يقوم بالاعمال الشاقة لكى يكون عبرة لغيره (٢) .

وعندما تمرد جنود مديرية التاكه (٣) ، لعدم صرف مرتباتهم نتيجة لسوء

---

(١) دفتر ٥٥٨ ، معية تركى ، وثيقة ٣٣ ، ص ٦٣ فى ربيع ثان سنة ١٢٨٣هـ الموافق ١٨٦٦م .

(٢) نفس المصـــــدر .

(٣) التاكه هى احدى بلدان السودان الشرقى ، والتى يقطنها عدد من قبائل البدو الرحل ، وكانت المسافة بين موطن كل قبيلة واخرى تتراوح فيما بين ٣ ، ٧ ، ٩ يوما من المسير ، وكان هؤلاء الســـــكان يعيشون فى منازل مبنية من الخيش والحطب ، وكانوا يسقفونها بالحصير المصنوع من أغصان شجر الدوم ، لذلك كان من السهل على الشخص ان يقوم بتقويض منزله ثم يحمله على ظهر بعيره ، ويقيمه فى مكان آخر وكانوا يزرعون الذرة التى يحصلون منها على الخبز ، الذى يتناولونه قبل أن يتم نضجه ، ليسهل تكسيره ، وكانوا يتناولون ايضا المسلى والجبن واللبن واللحم . وكانوا يتسلحون بالمدى والحراب ، وكان القليل منهم يتسلح بالبنادق النفير متوفر لها خراطيش ، وكان ٥٠٪ منهم يتكلمون اللغة العربية التى دخلت الى بلادهم عن طريق التجار الذين كانوا يذهبون الى الحجاز واليمن والى شمال افريقيا . انظر الوثيقة ٣٩ رقم ٢٨ فى ١١ جماد اول سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٦٦م من مخافظ ابحـــاث الســـودان .

الاحوال الاقتصادية فى المديرية ، رفضوا الخروج مع ضباطهم لجمع الضرائب الخاصة بالميرى ، وثارت ثائرتهم ، وقتلوا ١٦ ضابطا من ضباطهم ، وحاولوا الاستيلاء على مبنى المديرية والجبخانة ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، وكانوا قد نهبوا كل مايقع تحت ايديهم من اموال الأهالى والتجار ، مما اضطر هؤلاء الأهالى والتجار الى ترك منازلهم والهروب بعيدا ، خوفا من بطش هؤلاء الثوار ، الذين بلغ عددهم ٢٣٩٦ جنديا ، وكانت القوات الموالية للحكمدارية قد تمكنت من القضاء على هذه الفتنة وقتلت من المتمردين نحو ١٦٣٧ جنديا والقت القبض على ٧٥٩ جنديا (٤) ، وكان من ضمن هؤلاء المقبوض عليهم صاغ تول واحد ، ويوزباشيان ، ٦ باشجاويشا ، ٣٦ شاويشا ، ١٧٣ امباشيا (٥) .

وكان هؤلاء المتمردون قد قاموا بقتل البكباشى خطاب افندى والصاغقول اغاسى أحمد أغا ، وثمانية يوزباشية ، و٦ ملازمين ، والفين من الجنود النظاميين (٦) ، وكان قد نتج عن هذا التمرد اضطراب الأمن وانتشـــار الفوضى والجوع والمرض بين السكان فى معظم انحاء المديرية ، مما اضطر الأهالى الى الفرار الى قمم الجبال والمناطق النائية ، تاركين من خلفهم منازلهم واموالهم (٧) . وبعد أن تم القبض على المتمردين أمر الخديو اسماعيل بمحاكمتهم ، أمام محاكم عسكرية ، كى يكونوا عبرة لغيرهم وكى يستتب الأمن والنظام فى ربوع البلاد ، وقد قسمت عقوبتهم الى درجات ثلاث :

ـــ عقوبة الدرجة الأولى وتقضى بالاعدام للذين اشتركوا فى الثورة ، سواء القى القبض عليهم او ظلوا هاربين بعيدا .

ـــ عقوبة الدرجة الثانية ، وتقضى بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وذلك للذين اشتركوا فى التمرد ، وتقرر عدم الافراج عنهم الا اذا اصدر الجناب

---

(٤) وثيقة ٣١/٣٥ فى ٢ جماد ثان سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(٥) دفتر ٥٥ معية تركى ، وثيقة ١٥ ص١٥ . فى ٢ جماد آخر سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(٦) وثيقة ١١/٣٤ فى ٢ ربيع أول سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(٧) وثيقة ٣٥/٢٩ فى ١٧ جماد أول سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

العالى عفوا عاما واشترط ان يقيد هؤلاء بالسلاسل ، ولا يحصلون الا على وجبة واحدة من الطعام فى اليوم ، كما لايحصلون الا على ثلاث قمصان من القماش الأبيض فى السنة ، وتقرر أن يقوموا بتمهيد الطريق الذى يربط التاكه ، بسواكن ؛ وكذلك يقومون بحفر الابار ، وبتجديد مبانى الحكومة ، وفى حالة محاولة احدهم الفرار يطلق عليه الرصاص فى الحال (٨) ، وعلى مرأى من ذويهم (٩) .

ـ عقوبة الافراج عن الأشخاص الذين اجبروا على الاشتراك فى التمرد وخاصة صغار السن .

وقد انتهت المحاكمة الى اعدام الأعداد التالية : ـ

ـ واحد يوزباشى (١٠) .
ـ اثنين أمين بلوك .
ـ تسعة باشجاويش .
ـ سبعة وعشرين شاويشا .
ـ واحد وثمانين امباشيا .
ـ ١٩٩ جنديا (١١) .

وبالاضافة الى ذلك فان المحاكمة انتهت أيضا الى سجن ٤٠٠ جندى ، واعفاء ٥٥٩ جنديا آخرين كانت قد ثبتت براءتهم ، وعفى عن ٣ شاويش ، وسبعة امباشية ، وواحد بلوك أمين (١٢) .

---

(٨) دفتر ٥٥٨ معية تركى ، وثيقة ١ ص ٦ فى غرة جماد اول ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .
(٩) دفتر ٥٥٨ معية تركى ، وثيقة ٦ عام ١٨٦٥م .
(١٠) محفظة ٣٦ معية تركى وثيقة ٢٤٥ فى ١٠ شعبان ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .
(١١) وثيقة ٣٧/٦١ فى غرة رمضان سنة ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .
(١٢) نفس الوثيقة .

طلب اسماعيل بعد ذلك من حكمدار السودان أن يعمل على عمران البلاد وفى هذا الصدد يقول ما نصـــه :

« ان اساس المدنية والعمران ترتكز على أمرين الأول حفظ الأرواح والاعراض والأموال (اى الأمن العـــام) والثانى توسيع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وهذا يتوقف على تسهيل سبل النقل والمخابرات ، فابذلوا الجهد فى تمهيد الطرق واصلاحها واعملوا على حفظ الأمن فيها ؛ وخصوصا العدد الكافى من الهجانة لنقـــل البريد (١٣) . واضح من هذا الخطاب مدى اهتمام اسماعيل بعمران البلاد ونشر الأمن فيها .

لم يقتصر اهتمام اسماعيل على نشر الأمن فى السودان فحسب ، بل شمل جميع المناطق الأخرى ، التى خضعت للسيادة المصرية ، مثل هرر التى كان سكانها من البدو يأتون اليها كل أسبوع وذلك ليعيشـوا بين سكانها بعض الوقت ، وكانوا يحصلون فى اثناء تلك المدة على بعض الكساوى (ثمانية اذرع من القماش) كنوع من الاحسانات او الاتاوات الى جانب حصـــولهم على المأكل والمشرب والنقود ، ولكن لمـــا خضعت هرر للسيادة المصرية ، حرم هؤلاء من مجيئهم اليها ، فربما يرجع ذلك الى خوف هؤلاء البدو من السلطة الجديدة ، فاضطروا الى مهاجمة المدينة ، فامر اسماعيل مدير هرر ، أن يجتذب هؤلاء البدو عن طريق تجنيدهم فى الجيش ، بحيث لايعطون سلاحا ، بل يسلحون بأسلحتهم التقليدية (الحراب والنبال) حتى يمكن الاستفادة بهم فى حفظ الأمن ، حتى لايقومون بالسرقات ، كما امر اسماعيل ايضا ان لاتقوم القوات النظامية ، بممارسة تدريباتها بالقرب من اماكن اقامتهم حتى لايظنوا سوءا بالحكومة ، من أنها ستقوم بمهاجمتهم (١٤) .

بالاضافة الى ما سبق فان اسماعيل أمر بتصفية الخلافات القائمة بين القبائل ، وذلك بارسال مندوبين من طرفه الى الجهات التى تحدث فيها

---

(١٣) دفتر ٥٥٨ معية تركى ـــ وثيقة ١٥ ص ١٥ فى ٢ جماد ثان ١٢٨٢ الموافق ١٨٦٥م .

(١٤) دفتر ٣٧١٦ وثيقة ١٦ ص٣٢ فى ٢٢ صفر سنة ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م .

خلافات ومنازعات قبلية (١٥) ، وقد أدت هذه السياسة بالتالى الى استتباب الأمن ، ونشر الطمأنينة بين السكان ، وأدت أيضا الى رواج التجارة وازدهار الزراعة .

٢ ــ التعليم :

اهتم اسماعيل بنشر التعليم فى هذه المناطق الأفريقية ، ففى عام ١٨٦٤ طلب موسى حمدى حكمدار السودان من الخديو اسماعيل أن يوافق على تعليم أبناء العمد والمشايخ القراءة والكتابة ، وذلك للاستعانة بهم بعد اتمام دراستهم فى دواوين الحكومة ، وكان اسماعيل قد وافق على فتح مدرسة فى الخرطوم لتعليم أبناء السودان واشترط أن تضم هذه المدرسة ٥٠٠ تلميذ (١٦) .

ولكن فيما بعد تقرر أن تنشأ خمس مدارس بدلا من مدرسة واحدة ، ربما لأن المدرسة الواحدة سوف تفيد أبناء بلدة واحدة فقط ، بينما تفيد المدارس الخمس خمسة بلدان ، وكان قد تقرر أن تنشأ هذه المدارس فى كل من بربر ، ودنقلة ، وكردفان ، والقاكه والخرطوم (١٧) .

وقد زودت هذه المدارس بما يلزمها من الأدوات الكتابية المثلة فى الكتب والكراريس وغيرها من الاشياء الأخرى . وكان قد خص مدرسة الخرطوم خمسون كتابا من كل صنف من أصناف الكتب المقررة ، وخص كل مدرسة من المدارس الأخرى ٢٥ كتابا ، وزودت هذه المدارس بالمدرسين الآتى أسماؤهم بعد :

---

(١٥) دفتر ٣٧١٦ وثيقة ١٦ ص ٣٢ فى ٢٢ صفر سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

(١٦) دفتر ٥٢٦ معية سنية ، وثيقة ٢٢ ص ٨٢ فى ٢٥ القعدة ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م .

(١٧) دفتر ١٣٩ وارد معية سنية ، وثيقة ٥ ص١٨ فى ٢٣ ربيع ثانى سنة ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م .

ـ محمد شاكر افندى ؛ الذى وزع للعمل فى مدرسة الخرطوم بمرتب شـــهرى قدره ؛ ١٠٠٠ قرشا .

ـ حافظ محمد على افندى الخرطوبلى الذى وزع للعمل فى مدرســـة دنقلة بمرتب شهرى قدره ؛ ١٠٠٠ قرشـــا .

ـ محمد افندى بوده الذى وزع للعمل فى مدرسة بربر بمرتب شهرى قدره ؛ ١٠٠٠ قرشـــــا .

ـ حافظ خليل افندى الذى وزع للعمل فى مدرسة التاكه بمرتب شهرى قدره ؛ ١٠٠٠ قرشـــــا .

ـ اسماعيل يوسف أفندى الذى وزع للعمل فى مدرسة كردفان بمرتب شـــــهرى قدره ؛ ١٠٠٠ قرشـــا .

بالاضافة الى هؤلاء المدرسين ؛ زودت هذه المدارس بعدد من النظار والمدرسين الأتراك والعمال الذين كان يتقاضى العامل منهم مرتبا شـــهريا قدره ؛ ٣٥ قرشـــا (١٨) .

وكان من المتبع فى حالة تقصير اى مدرس من هؤلاء المدرسين فى تأدية عمله على الوجه الأكمل ان يقوم مدير المديرية التابعة لها المدرسة بنقل هذا المدرس الى جهة اخرى (١٩) . وندلل على ذلك بانه عندما اهمل احد مدرسى مدرسة دنقله فى أداء واجبه نتيجة انشغاله بالتسلية فى صيد الأسماك من النيل ، نقله مدير المديرية من هذه المدرسة (٢٠) . وكان للطلبه الحق فى الانتقال من مدرسة الى اخرى (٢١) فمثلا كان الطالب ينتقل من مدرسة

---

(١٨) دفتر ١٣٩ وارد معية سنية ؛ نفس الوثيقة والتاريخ .

(١٩) دفتر ١٣٩ وارد معية سنية ، وثيقة ٥ ص ١٨ فى ٢٣ ربيع ثانى ســـنة ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م .

(٢٠) دفتر ١٨٥٩ وثيقة ٤ ص ٥٢ فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م .

(٢١) دفتر ٣٠ صادر نلغراف رقم ١٦ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

سنار الى مدرسة الخرطوم او الى غيرها من المدارس ، وربما يرجع السبب فى ذلك الى قرب المدرسة المنقول اليها الطالب من سكنه .

وكانت هذه المدارس تكلف الحكومة المصرية الكثير من الأموال ، فقد بلغت تكاليف مدرسة الخرطوم الشهرية بما فى ذلك مرتبات المدرسين والعمال والتلاميذ ٨٣٤٦ قرشا ، ٤٠ بارة ، وبلغت تكاليف مدرسة كردمان ، بما فى ذلك مرتبات المدرسين وتكاليف معيشة التلاميذ ٢٩١٣ قرشا ، ٧٢ باره ، وبلغت تكاليف مدرسة بربر ٢٨٧١ قرشا ، ١٢ باره ، وتكاليف مدرسة دنقلة ١٢٨٧١ قرشا ، وبلغت تكاليف مدرسة التاكه ٢٩١١ قرشا ، ١٢ بارة ، وبلغت التكاليف الاجمالية لهذه المدارس ٢٩٩١٢ قرشا ، ١٣٦ بارة (٢٢) .

وكان نظام الدراسة فى هذه المدارس ينقسم الى قسمين ، قسم خارجى وهو بالمصروفات ، التى تبلغ قيمتها الشهرية ريال مجيدى ، لكل تلميذ (اى ستة عشر قرشا) ، وقسم داخلى ، والذى كانت الدراسة فيه بالمجان، وكانت المواد الدراسية التى تدرس فى هذه المدارس ، اللغة التركية والعربية والحساب والهندسة والرياضة ، بالاضافة الى تعليم الخط ، الذى عنى به عناية خاصة ، حتى ان الطالب كان لاينجح اذا رسب فيه ، وبعد التخرج كان تلاميذ القسم الداخلى ، يعينون فى وظائف كتابية ، فى السلكين العسكرى والادارى ، بينما تلاميذ القسم الخارجى كانوا يخيرون بين التوظف وبين الاعمال الاخرى ، وكان معظم تلاميذ هذه المدارس من ابناء المصريين ، المقيمين بالسودان ومن ابناء جنود الجهادية ، والمشايخ والعمد .

وفى عام ١٨٧٣ تقدم للامتحان من تلاميذ مدرسة الخرطوم على سبيل المثال ٢٦ تلميذا نجحوا جميعا فى الامتحان ، وكانت النتيجة كالآتى :

١٥ تلميذا نجحوا بدرجة أعلى ، ١٠ نجحوا بدرجة عال ، وواحد نجح بدرجة وسط (٢٣) .

(٢٢ ، ٢٣) محافظ ابحاث السودان .

وأما عن التعليم الفنى فى ذلك الوقت ؛ فقد انشئت له مدرستان فى كل من الخرطوم وكسلا ، وذلك لتعلم التلاميذ من خريجى المدارس الابتدائية فن التلغراف ، وكان يشرف على تعليم هؤلاء التلاميذ أحد المهندسين ووكيل تلغراف كل جهة ، وبعد أن ينهى هؤلاء التلاميذ تدريباتهم فى تعلم فن التلغراف، ينقسمون الى ثلاث فئات على حسب مستواهم العلمى ، فينقسمون الى تلغرافجى أول ، وثانى ، وثالث ، وقد عمل هؤلاء التلاميذ بعد تخرجهم فى محطات التلغراف السودانية (٢٤) . والى جانب تعليمهم فن التلغراف تعلم البعض منهم فن الهندسة ، ومبادىء الحساب فكان يلحق التلاميذ من خريجى المدارس الابتدائية أيضا بترسانة الخرطوم البحرية ، وكانوا يمكثون بها عدة شهور ، وبعدها يوزعون للعمل على السفن ، التى تعمل فى النيـــل والبحر الأحمر (٢٥) .

زيادة على ذلك فان حكمدار السودان طلب من الصاغ محمد شكرى أحد الأطباء الذين يعملون بمستشفى الخرطوم أن يقوم بتعليم عدد من التلاميذ خريجى المدارس الابتدائية مهنة الطب ، وقد أبدى هذا الطبيب ـــ استعداده للقيام بهذه المهمة ، ولكن لما عرض الأمر على الخديو اسماعيل رفض ذلك ، بحجة أن مهنة الطب تحتاج الى وقت طويل من التعليم ، ووعد بأنه سوف يرسل اطباء من مصر الى السودان لسد العجز هناك (٢٦).

وكان الشيوخ يقومون بتحفيظ التلاميذ القرآن الكريم ، بالاضافة الى تعليمهم القراءة والكتابة ، وكان قد خصص لهؤلاء الشيوخ مكافآت مالية بسيطة لاتكاد تكفى حاجاتهم وكان البعض من هؤلاء التلاميذ الذين يدرسون فى المساجد يأتون الى القاهرة لتكملة دراستهم فى الأزهر الشريف ، وكانت مدة هذه الدراسة تستغرق مدة تتراوح فيما بين سنتين وثلاث سنوات،وبعد

---

(٢٤) محفظة ٤٧ معية تركى ، وثيقة ٦٥٨ فى ٩ شعبان سنة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧٠م.

(٢٥) نفس المصـــدر .

(٢٦) دفتر ٥٨٤ معية تركى ، وثيقة ٢ ص ٥٨ فى ٢٣ شوال ســنة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧٠م (محافظ ابحاث السودان) .

وأما عن التعليم الدينى فى هذه الفترة فكان منتشرا فى جميع المساجد ،

عودتهم الى بلادهم كانوا يقومون بنشر التعاليم الدينية بين مواطنيهم كما كانوا يقومون بتفهيمهم لاصول الشريعة الاسلامية ، وكان يحصل هؤلاء التلاميذ السودانيون الذين يدرسون فى الأزهر على مرتب يومى قدره قرشان، وكان قد تقرر أن يخصم هذا المبلغ على جانب حكمدارية السودان (٢٧) .

لم تكن الدراسة فى مصر بالنسبة للسودانيين ، قاصرة على التحاقهم بالأزهر الشريف فحسب بل التحقوا أيضا بمدرسة المبتديان وذلك ليتعلموا العلوم الزراعية ، وبعض العلوم الأخرى ، وكان البعض من التلاميذ الذين التحقوا بمدرسة المبتديان كبار السن والبعض الآخر منهم كان صغير السن ويبدو أن التلاميذ كبار السن كانوا لايتقدمون فى دراستهم ، ولكن لما علم اسماعيل بعدم تقدمهم فى الدراسة ، قرر أن ينهى دراستهم وان يلحق أقوياء البنية منهم بالجيش ، أما ضعاف البنية فيلحقون بالحرف والصناعات الأخرى (٢٨) .

لم يقتصر نشر التعليم فى عهد اسماعيل على السودان فحسب ، بل عمل اسماعيل على نشره فى بلاد افريقيا الشرقية ، فقد وافق على انشاء ثلاث مدارس فى كل من سواكن ومصوع وباغوص وذلك لتعليم الأطفال القراءة والكتابة (٢٩) . لم يقتصر التعليم على هذه البلدان بل انتشر فى غيرها من البلدان الافريقية الأخرى ، ففى عام ١٨٧٦ طلب اللواء محمد نادى من الخديو اسماعيل أن يوافق على انشاء مدرسة فى هرر ، وذلك لتعليم ابنائها القراءة والكتابة ، واستند اللواء نادى فى ذلك على النقاط التالية :

— وجود مكان واسع فى هرر ، يصلح لأن يكون مدرسة .
— تتعهد المديرية بانشاء الكراسى والارائك اللازمة للتلاميذ وذلك لوفرة الأخشاب .

---

(٢٧) دفتر ٥٧٦ وثيقة ٤ ص ٥١ فى ٥ شعبان ١٢٨٤ الموافق ١٨٦٧م .
(٢٨) دفتر ٥٧٣ معية تركى — وثيقة ٦ ص ٦٣ فى ١٠ محرم ١٢٨٥ الموافق ١٨٦٨م .
(٢٩) دفتر ١٩٤٦ أوامر عربى رقم ٦ ص٣٩ فى ٢٨ الحجة سنة ١٢٨٩ الموافق ١٨٧٢م .

ـ تتكفل الحكومة المصرية بتكملة التعليم لهؤلاء التلاميذ فى مصر ، بعد انتهائهم من دراسة المرحلة الابتدائية فى مدرسة هرر .

ـ يصرف لكل تلميذ فى كل اسبوع قرشا واحدا ونصف مرتب جهادى ، بالاضافة الى منحة فى كل سنة طاقيتين وطربوش وجلابية متوسطة الطول، ومحاط اسفلها وياقتها بدوائر حمراء وسروال شبيه بالبنطلون .

ـ تقوم المدرسة بتدريس علم الزراعة والخط والحساب والقرآن الكريم والعقائد الدينية ، ويتم ذلك بواسطة المدرسين الذين يعينهم ديوان المعارف .

ـ يتكون عدد تلاميذ المدرسة من ٢٠٠ تلميذ ، واذا زاد هذا العدد عن المعدل المطلوب ، ففى هذه الحالة تقبل الاعداد الزيادة ، على شرط الا يتقاضوا مرتبات شهرية باستثناء حصولهم على الادوات الكتابية (٣٠) .

يمكن القول بأن الخديو اسماعيل قد اهتم بنشر التعليم فى معظم البلدان الافريقية ، التى خضعت للسيادة المصرية فى القرن التاسع عشر ، ويعتبر هذا الاهتمام بحق على جانب كبير من الأهمية ، مهما كانت النتائج ، كما أنه يعتبر النواة الأولى للنهضة العلمية فى السودان فيما بعد .

٣ ـ الصـــحة :

تعتبر معظم البلاد الأفريقية ، من المناطق الحارة التى تتميز بانتشار الأمراض المتوطنة فيها ، مثل الحمى والدوسنتاريا والجدرى ، ومرض النوم ، لذلك نجد أن اسماعيل حرص كل الحرص على الاهتمام بالصحة العامة ، وذلك بانشـــاء المستشفيات فى بعض المديريات كالخرطوم ومصوع .

ويعتبر عدد هذه المستشفيات قليلا جدا ، اذا ما قيس بعدد المديريات ، ولكن على أية حال فان هذه المستشفيات قامت بدور ايجابى فى معالجة المرضى وفى تحصينهم ضد الأمراض الخطيرة ، والى جانب هذه المستشفيات فقد

---

(٣٠) محفظة ٤٠ مجلس الوزراء (السودان) سنة ١٨٧٦م .

خصصت الحكمدارية طبيبا لكل بلدة ، كى يقوم بالاشراف الصحى ، ومعالجة المرضى فى هـذه الجهات .

لم يقف اهتمام اسماعيل بالشئون الصحية ، عند هذا الحد ، بل نجده يطلب فى عام ١٨٧١ ، من حكمدار السودان ، أن يقوم باجراء قيد المواليد والوفيات ، ويبدو أن اسماعيل كان يهدف من وراء ذلك الى الوقوف على أحوال البلاد الصحية ، فاذا كانت نسبة الوفيات كثيرة فان هذا يدل على انخفاض المستوى الصحى فى هذه البلاد ، واذا كانت نسبة المواليد كبيرة ونسبة الوفيات قليلة ، فان هذا يدل بدون شك على ارتفاع المستوى الصحى لهـذه البلاد .

عجز حكمدار السودان عن تنفيذ اجراء قيد المواليد والوفيات ، وربما يرجع السبب فى ذلك الى قلة عدد المستشـفيات والوحدات الصـحية الموجودة فى البلاد ، بالاضافة الى العجز الواضح فى عدد المرضين والممرضات والأطباء ، فقد كان يوجد طبيب واحد فى كل بلدة ، وكان لايمكن لهذا الطبيب أن يقوم بهذه العملية بمفرده ، وذلك لصعوبة المواصلات ، وبعد البلاد بعضها عن البعض ، وكان حكمدار السودان قد ذكر انه فى حالة تنفيذ هذه العملية يجب توفير الأطباء والموظفين فى كل قسم وجبل وقبيلة وبدنة (٣١) .

لم يقتصر اهتمام اسماعيل بالشئون الصحية على السودان فحسب بل اهتم أيضا ببعض البلدان الأفريقية الأخرى ، ففى عام ١٨٧٦ ، وافق اسماعيل على انشاء مستشفى فى بلدة مصوع ، يسع لعدد خمسين فردا ، وكان رضوان باشا محافظ سواحل البحر الأحمر قد طلب تزويد هذا المستشفى بالملبوسات والأسرة والمفروشات ، وبعض الدفاتر والادوات الكتابية ، كما طلب تزويده ايضا بطبيب لمعالجة المرضى ، واشترط أن يكون هذا الطبيب ممن يجيدون اللغة الفرنسية ، ربما لانه سوف يقوم بمعالجة الاجانب ، الذين يقطنون مصوع ، وسواكن وغيرها من البلدان الأخرى ، كما طلب ايضا تزويده بباشتمرجى وأربعة آخرين من التمرجية (٣٢) .

---

(٣١) محفظة ٤٧ معية تركى ، وثيقة ٨٧٤ فى غرة الحجة ١٢٨٧ الموافق ١٨٧٠م .

(٣٢) دفتر ١١ صادر معية ، وثيقة ٦١ ص ١٥١ فى ٧ شعبان ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

٤ ــ القضـــــاء :

اهتم اسماعيل بالقضاء فى السودان ، وفى غيره من البلاد الافريقية الاخرى ، فقد اصدر امرا يقضى بتشكيل مجلس شورى فى الخرطوم ، يتكون اعضاؤه ، من رئيس وعدد من الموظفين والعمد ووجوه البندر ، بالاضافة الى كاتب وعامل ، وكان هذا المجلس ينعقد عند اللزوم وذلك للنظر فى القضايا المعروضة عليه (٣٣) وفيما بعد انشىء مجلس آخر فى التاكة يتكون أعضاؤه من ضباط الجهادية ، والعمد والمشايخ والعلماء والتجار (٣٤)

وفى عام ١٨٧٧ انشىء بالخرطوم مجلس استئناف يتكون أعضاؤه من التجار والعمد ، وكان الغرض من انشائه هو استئناف القضايا المعتدة امامه، بدلا من ارسالها الى مصر ، وكان اعضاء هذا المجلس لايتقاضون رواتب شهرية مما اضطرهم ذلك الى التشكى الى الحكومة ، وطلبوا اعفاءهم من دفع الضرائب المقررة عليهم ، ولما عرض الأمر على حكمدار السودان ،طلب من المعية السنية ، الموافقة على طلبات أعضاء هذا المجلس وطالب ايضا بمنحهم الرتبة الرابعة كتشجيع لهم على خدماتهم (٣٥) .

لم يقتصر انشاء المحاكم على السودان ، فحسب بل شمل أيضا بعض الاقاليم الأفريقية الاخرى التى كانت منضمه لمصر ، فقد انشىء عدد من المحاكم الخصوصية فى سواكن وملحقاتها ، وكانت مدة عمل هذه المحاكم سنتين فقط ، ربما لكى لايتمكن اعضاؤها من تكوين علاقات صداقة مع المواطنين ، وربما يكون السبب فى ذلك راجعا الى ان مدة هذه المحاكم هى سنتان فقط بعدها يعاد تشكيلها من جديد ، وكانت تصدر احكاما بالاشغال الشاقة لمدة اكثر من خمس سنوات وكان من المتبع ان يرفع استئناف احكامها امام محكمة استئناف مصر ، وكانت هذه المحاكم تخضع الى ديوان الحقانية ، وكان

---

(٣٣) دفتر ١٨٥١ معية عربى ، وثيقة ٢٩ ص ٧٣ فى ٢٢ القعدة سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧١م .

(٣٤) دفتر ٢٨٥ فى ١٥ رجب سنة ١٢٩٠ الموافق ١٨٧٣م .

(٣٥) دفتر ٢٤ معية عربى ، وثيقة ٥ ص ٩٢ فى جماد اول سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

يشترط فى أعضائها أن يكونوا من ذوى المعرفة والاستقامة (٣٦) . والى جانب انشاء محكمة سواكن فقد أنشىء مجلس خصوصى فى مصوع ؛ وتكون اعضاؤه من رئيس هو الشيخ عبد الله خليل ، ومن وجهاء البندر وعمده ؛ وكان هذا المجلس يعقد بغرض النظر فى القضايا والدعاوى التجارية فى مصوع (٣٧) وفيما بعد وجد أنه لافائدة منه مما أضطر اسماعيل الى الغائه ، وذلك لأن مصوع فيما يبدو كانت لاتوجد فيها مشكلات تجارية كثيرة (٣٨) ، ومن الملاحظ أن جميع المحاكم والمجالس الخصوصية لم تضم بين أعضائها ضباطا من الجهادية ، باستثناء التاكه التى ضم مجلسها بعض الضباط ، وربما كان يرجع السبب فى ذلك الى الثورة التى قام بها الجنود عام ١٨٦٥م .

٥ ــ العمـــارة (وانشاء المدن) :

اهتم اسماعيل بتجديد مبانى بعض المدن ؛ واضافة الجديد اليها ، وكان من هذه المدن الأبيض التى بنى بها اسماعيل مقرا للحاكم ومسجدا ومستشفى وثكنات للجند وسوقا ، وكانت منازلها فيما مضى عبارة عن تركولات مبنية من القش والطين . وأما الفاشر فقد انشئت بها قلعتان لجنود الجهادية ، وذلك للدفاع عنها (٣٩) والى جانب الابيض فقد انشأ اسماعيل فى مصوع عددا من الأبنية الحجرية المثلة فى ديوان المحافظة والمسجد والمستشفى العسكرى وطابية الطوبجية (٤٠) وبالنسبة لسواكن فقد انشىء فيها مبنى لديوان المحافظة ، ومبنى للجمرك وعدد من الدكاكين والمقاهى ، والمنازل الخاصة بموظفى الحكومة ، بالاضافة الى ذلك فقد أنشىء بها عدد من الاستحكامات المثلة فى الطوابى والقلاع الخاصة (٤١) بالدفاع عنها وقد رسمت ثلاث خرائط لكل من سواكن ومصوع (٤٢) .

---

(٣٦) محفظة ٣٧ مجلس الوزراء (سودان) .
(٣٧) دفتر ١٨٥٢ وثيقة ٤ ص٣ فى ١٨ رجب سنة ١٢٨٨ الموافق ١٨٧١م
(٣٨) محفظة ٢٨ مجلس الوزراء (سودان) .
(٣٩) Report on the Egyptian province. op. cit. P. 200.
(٤٠) تقرير أحمد ممتاز باشا عن سواحل البحر الأحمر .
(٤١) د. السيد يوسف نصر : المصدر السابق ص ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .
(٤٢) أنظر الخرائط أرقام ٩ ، ١٠ ، ١١ الخاصة بسواكن ومصوع خلف صـــفحة ٢٨٤ .

صورة الخريطة رقم (٩)
وتمثل موقع بلدة سواكن والطرق التى تربطها بغيرها من البلدان

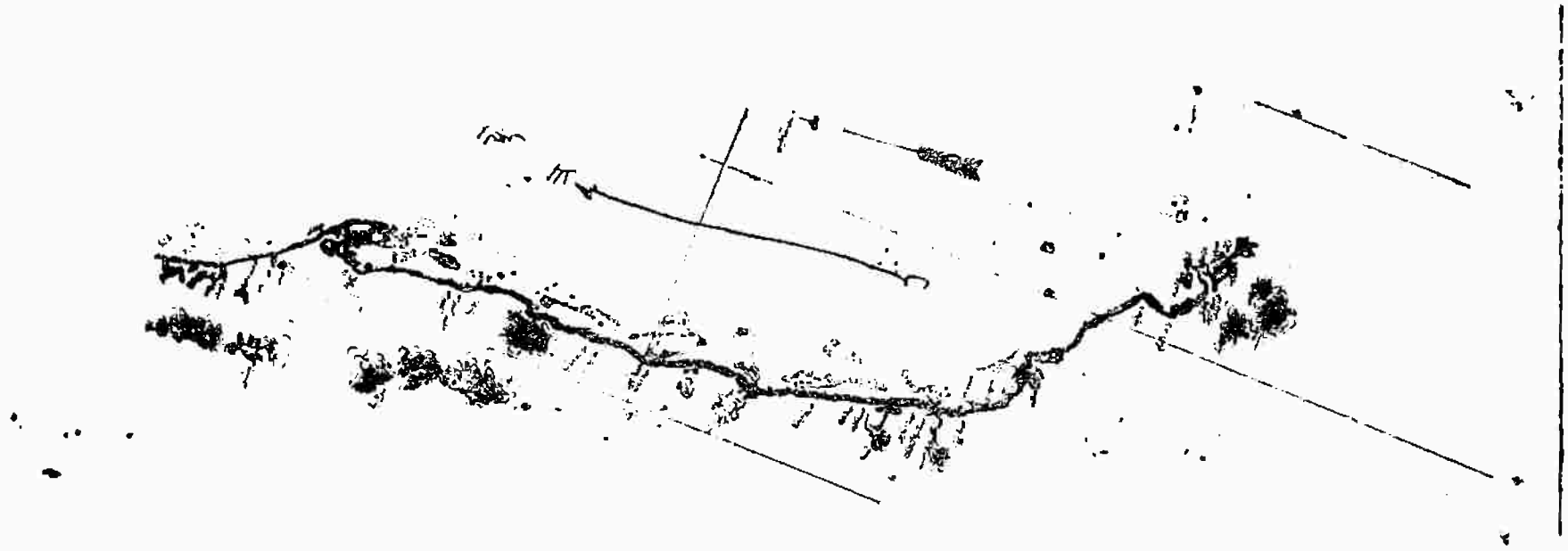

صورة الخريطة رقم (١٠)
وتمثل سواحل سواكن

صورة الخريطة رقم (١١)

وتمثل ميناء مصوع وما جاوره .

ومن المدن التى اهتم اسماعيل بها بلدة بربرة ، فقد أمر اسماعيل عام ١٨٧٢ محمد بهرام ، انيقوم بانشاء مدينة جديدة بجوار قرية بربرة ، بحيث تكون على أحدث النظم ، فى ذلك الوقت ، وقد تمكن محمد بهرام من اتمام بناء هذه المدينة فى مدة خمس سنوات - ابتداء من عام ١٨٧٢ وحتى عام ١٨٧٧ ، وقد تضمنت هذه المدينة مرسى للسـفن وعددا من الأرصفة والمخازن (٤٣) كما بنى بها ايضا مسجد بلغ طول مئذنته ٦ أمتار (٤٤) وبعد أن تم انشاؤه زود بالمياه وقد مارس السكان فيه كافة الشعائر الدينية والدعوات لولى النعم ولأنجاله الكرام (٤٥) وانشئت ايضا ببربرة سلخانة وذلك ، لكى تذبح فيها الذبائح بالطريقة الصحية ، وبلغت مساحتها حوالى ٣٠٠م٢ ، وبعد أن تم انشاؤها ، قام مدير بربرة بتأجيرها الى احد مواطنى البلدة فى مقابل أن يدفع مبلغا وقدره ، ٢٠٥٣ قرشا ، ٢٢٥ روبية فى السنة(٤٦) زيادة على ذلك فقد انشئت بها طابونة (فرن) وكان يعمل بها ثلاثة من عساكر الجهادية ، فعمل الأول غرانا وعمل الثانى خبازا وعمل الثالث نخالا ، وكان أجر العامل منهم ثلاثة قروش فى اليوم (٤٧) وقد تضمنت مبانى بربرة ايضا مبنى ديوان المحافظة والجمرك والاسبتالية (المستشفى) (٤٨) وثكنات الجنود ، بالاضافة الى الفنار ، الذى عين لأدارته فى أول الأمر الخواجه كارمنوس ، الذى عين بمعرفة موريس بك وكيل الفنارات ، ومن بعده عين لادارته الخواجه منويل كساو ؛ ومعه اثنين من ابناء العرب ،

---

(٤٣) د. محمد صبرى : مصر فى افريقيا الشرقية ؛ ص ١٨ .

(٤٤) دفتر ٣٧١٤ معية عربى — وثيقة ١٥ ص ١١٥ فى ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٤٥) دفتر ٣٧١٥ وثيقة ٥٨ فى ٢٨ القعدة سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٤٦) دفتر ٣٧١٥ وثيقة ٣١ ص ١٤ فى ١٧ رمضان سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٤٧) دفتر ٢٤٢٤ صادر حكمدارية ؛ وثيقة ١ ص٣١ فى ١٠ جماد اول سنة ١٢٩٥ الموافق ١٨٧٨م .

(٤٨) محفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

وثالثا من الأوربيين ، وكان مدير هذا الفنار يقوم بتحصيل عوائد المراكب (الجمارك المقررة) وكان يحصل عن كل قرناطة قرش صاغ واحد ، وفيما بعد خفضت قيمة هذا الجمرك ، فأصبحت ٢٠ فضة ، بدلا من قرش صاغ (٤٩) ، ربما يرجع السبب فى تخفيض قيمة الجمرك الى تنشيط حركة التجارة بين الأقاليم المصرية وغيرها من بلدان العالم وكان هذا الفنار وايراداته ومصروفاته يتبع مصلحة عموم الليمانات والفنارات التى يراسها ماكيلوب باشـــــا (٥٠) .

بالاضافة الى ذلك فقد زودت بربرة بالمياه العذبة فبعد أن انتهى البناء من هذه المدينة ، أمر اسماعيل بتوصيل المياه العذبة اليها ، فكان من المتبع قبل ذلك ان تنقل المياه العذبة اليها ، من بئر الدوبار بواسطة البراميل الخشبية الصغيرة ، التى كانت تنقل على ظهور الدواب ، وكانت هذه العملية غير مجدية ، حيث كانت لاتفى باحتياجات السكان بالمياه ، بالاضافة الى ذلك فانها كانت عملية شاقة مما دفع اسماعيل الى مد خط من المواسير ابتداء من بئر الدوبار ، وحتى مدينة بربرة الجديدة ، وبعد أن وصلت الأدوات والمهمات والعمال بدا العمل فى هذا الخط يوم ١٢ أبريل عام ١٨٧٦ تقريبا ، وانتهى منه فى ٢١ يونيو من نفس العام واستغرقت مدة العمل ٦٩ يوما وبلغ طول هذا الخط ابتداء من الدوبار ، وحتى بلدة بربرة حوالى ١٢ كم و ١٢٣ مترا (٥١) وكانت المحافظة قد أنشأت حوضين صغيرين ، وذلك لتخزين المياه اللازمة للسفن والماشية والأهالى (٥٢) وكانت مياه الدوبار قد وصلت الى المسجد والمستشفى ومبنى الجمرك وديوان المحافظة والطاحونة والمخبز والمخازن وثكنات الجند والمنازل الخاصة بموظفى الحكومة (٥٣) .

---

(٤٩) دفتر ٢٤ معية عربى — وثيقة ٥٦ ص٦٨ فى ١٩ جماد أول ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

(٥٠) دفتر ٢١ معية عربى ، وثيقة ٢٧ ص ٤٩ فى ٢٢ جماد ثان سنة ١٢٩٤هـ الموافق ١٨٧٧م .

(٥١) د. جلال الدين مصطفى يحيى : مصر الأفريقية المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٥٢) دفتر ٣٧١٥ وثيقة ٤٧ ص٥٠ فى ١٤ شوال سنة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م .

(٥٣) دفتر ٣٧١٦ وثيقة ٥ ص ١١ فى ٢٦ الحجة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م

لم تصل هذه المياه الى الوابورات الراسية فى البحر مثل وابورات البوستة الخديوية ووابورات الأجانب ، وكذلك النقط العسكرية الموجودة بعيدا عن بربرة ، لذلك استخدمت البراميل فى نقل المياه الى جميع الوابورات والى الأماكن البعيدة الأخرى (٥٤) .

وكان من نتائج توصيل المياه بواسطة المواسير من الدوبار الى بربرة ، أن الغى نظام البراميل الذى كان مستخدما من قبل فى نقل المياه الى سكان البلدة ، كما ضمن هذا المشروع للسكان استمرار تدفق المياه الى منازلهم (٥٥)

من الملاحظ ان بربرة حظيت بنصيب وافر عن غيرها من البلدان الأفريقية الأخرى ، يبدو لانها كانت عامرة بالسكان أكثر من غيرها ، بالاضافة الى نشاط حركة التجارة فيها ، فكان لها علاقات تجارية مع بلاد الصومال والحبشة وعدن ، فكان يرد اليها من هذه البلاد الأرز والتمر والأقمشة ، والتمباك ، والحديد والنحاس والخرز ، والقصدير ، والعاج والجلود وريش النعام والصمغ والمسلى ، وكانت تقوم هى بالتالى بتصدير الفائض من هذه الواردات الى عدن (٥٦) . زد على ذلك فان بربرة تمتعت باستتاب الأمن ورواج التجارة فى ظل السيادة المصرية وربما يرجع السبب فى ذلك الى استخدام العملة المصرية بدلا من « الريال المجيدى والروبية الهندى » اللذين كانا سائدين من قبل وقد بلغت قيمة العملة المصرية التى استخدمت فى بربرة فى عام ١٨٧٦ بنحو ٣٥٫٠٠٠ الف قرش فضة ، ٥٠٫٠٠٠ الف قرش نحاس (٥٧) وقد رسمت خريطتان لمدينة بربرة الجديدة (٥٨) .

---

(٥٤) دفتر ٢٤ معية عربى ص ٧١ وثيقة ٦٦ فى ١٧ جماد ثانى ١٢٩٤ الموافق ١٨٧٧م .

(٥٥) دفتر ٣٧١٤ معية عربى ، وثيقة ١٥ ص ١١٥ فى ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م .

(٥٦) محفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

(٥٧) دفتر ١١ وثيقة ٢٦١ ص ١٨٣ فى ٢٠ القعدة ١٢٩٣ الموافق ١٨٧٦م.

(٥٨) انظر الخريطة (١٢) وهى عن بندر بربرة ، وتوجد خلف صفحة ٢٩٠

وتمثل المبانى الميرية المصرية فى بندر بربرة
صورة الخريطة رقم (١٢)

ومن البلاد التى اهتم اسماعيل بها كذلك بلدة هرر ، التى شيد بها حوالى ١٠٢ منزلا بالاضافة الى عدد من الدكاكين ، ومبنى ديوان المحافظة وقد زينت بالحدائق الجميلة (٥٩) وانشئت بها أيضا طاحونة لطحن الفلال بدلا من استخدام الرحى ، وقد اشترك فى بنائها كل من العامل ابراهيم وهو نجار طواحين ، ومنقريوس عوض ، وهو نجار طواحين أيضا ومحمد داؤود ، وهو نجار وقاطع أحجار ، وسالم خيرى ، وهو حجار ، وكان هؤلاء العمال قد قاموا بتعليم أبناء هرر كيفية تشغيل هذه الطاحونة (٦٠) وانشىء بها أيضا مسجد ليؤدى فيه الناس الشعائر الدينية (٦١) .

ومن البلدان الأخرى التى حظيت باهتمام الخديو اسماعيل ، بلدة براوة ، فبمجرد وصول المصريين الى شرق افريقيا قاموا بتشييد المخازن فى منطقة نهر الجب وذلك لتخزين تعيينات قواتهم ومهماتهم ، حتى لا تتأثر بالأمطار وحرارة الشمس ، وقد استخدموا فى بنائها فى بادىء الامر القماش المخصص لصناعة قلوع المراكب والأخشاب التى تم قطعها من هناك (٦٢) . وكان ذلك فيما يبدو تمهيدا لانشاء مدينة جديدة فى هذه البلاد ، ويتضح ذلك جليا من قراءة المطالب ، التى طلبها ماكيلوب باشا من الخديو اسماعيل والتى تتمثل فى طلبه لعدد من الأشخاص من ذوى الحرف المختلفة ، وطلبه لعدد من الوحدات العسكرية لكى تعسكر فى هذه البلاد الى جانب طلبه الكثير من الأدوات المختلفة والمهمات والبذور (٦٣) .

ومن البلدان التى حظيت أيضا باهتمام اسماعيل بلدة غندوكرو ، التى تقع فى جنوب المديرية الاستوائية فقد انشأ اسماعيل فى هذه البلدة مبنى

---

(٥٩) محفظة ٤٠ مجلس الوزراء (سودان) .

(٦٠) دفتر ٢٤٢٥ ، وثيقة ٤٤ ص١٢٩ فى ١٤ رجب سنة ١٢٩٥ الموافق ١٨٧٨م .

(٦١) دفتر ٣١ معية عربى ، وثيقة ٢ ص ٣٤ فى ١٧ جماد اول سنة ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م .

(٦٢) محفظة ١١١ سواحل البحر الأحمر .

(٦٣) انظر هذه المطالب بكتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى افريقيا للمؤلف .

لديوان المديرية ، وعدا من المخازن ، كما بنى بها ترسانة صغيرة لتركيب السفن (٦٤) التى استخدمت للسير فوق مياه بحيرة البرت الى جانب تشييد عدد من المحطات على طول نهر النيل ابتداءا من فاشودة وحتى غندكرو . وقد كانت بمثابة عاصـــــمة للجنـــوب .

وفى ختام هذا الباب ، يمكن القول بأن عصر الخديو اسماعيل كان من اهم العصور التاريخية بالنسبة للوجود المصرى فى افريقيا ، ففى ظل حكمه ، تحقق للبلدان الافريقية الكثير من الأعمال الحضارية فى كافة المجالات، سواء أكان ذلك فى مجال الكشوف الجغرافية ، أم فى بناء المدن ، أو فى مد السكك الحديدية أو فى مجال الادارة والأمن والصحة والتعليم . فهو بحق يعتبر من ازهى عصور التوسع المصرى فى افريقيا فى القرن التاسع عشر .